سلطنة عمان
وزارة التراث القومي والثقافة



الحقيقة والمجاز

في

تاريخ الأباضية باليمن والحجاز

تأليف
الفقيه الفاضل الشيخ
سالم بن حمود بن شامس السيابي
قاضي المحكمة الشرعية بمسقط

١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى جعل الوجود البشرى فى هذا الكون أعجوبة الدهر ، وجعل أعماله الصالحة فى ذاتها خالدة الذكر ، وجعل ماسوى ذلك من الأفعال عبرة العقل وحيرة الفكر ، أحمده حمدا يجب لجلاله ، وأردفه بواجب الشكر على نواله وأصلى ، وأسلم على نبينا محمد وآله ، وعلى أصحابه الغر المتوجين بحسن خصاله فى كل قطر .

أما بعد فإنه مازالت نفسى تراودنى لتحرير تاريخ الأباضية باليمن وحضرموت ، وأباضية الحجاز قياما بحقوق أولئك السادة الذين أخذوا بهذا المذهب الصحيح ، وضحوا بما عز وهان فى خدمته ، فصارعوا الباطل وقارعوا أهل الضلال والفساد ، وجورة الأمة ، ولكن من حيث إن تاريخ القوم كما قيل يذكر ولا يبصر للقصور الذى أصيب به رجاله خصوصاً فى القضايا التاريخية ، وليتهم وفوها حقوقها ، وأعطوها واجباتها كما أعطوا القضايا الفقهية ما لزم وفوق ما يلزم ، فخدموا الفقه فى الدين خدمة يكاد أن يعجز عنها بقية أهل المذاهب ، ولكن الحقوق التاريخية أضيعت ، وقد قال الإمام السالمى رحمه الله فى تحفة الأعيان عن هذا المقام ما قال ، وتأسف على إضاعة الحقائق التاريخية وذكر رحمه الله أنه يحاول هذا المرام بكل جهده أن وفقه الله ، فيجعل تاريخ الصحافة فى كتاب خاص ، وتأريخ المذهب فى الحجاز والعراق وعمان واليمن والمغرب وخراسان وغيرها من عهد الصحابة إلى عصرنا هذا فى كتاب خاص ، قال : ثم رأيت أن ذلك شىء يطول ، فعجلت للناس السيرة العمانية .

قال وإن كان فى الأجل فسحة جعلت إن شاء الله باقى السيرة على حسب ما ذكرت ، فأجعل سيرة الصحابة فى جلد مفرد ، وسيرة أهل العراق واليمن وخراسان فى جلد مفرد ، وسيرة أهل المغرب فى جلد مفرد اﻫ .

وبذلك تبرز الأمة الأباضية المشار إليها فى عالم الحياة ، كأنها تشاهد عيانا ، وتكون أعمالها على فضلها برهانا ، فإن التاريخ لسان محدث عن الأمة فى أجيالها ، وعلى كل حال إن ذكر الإنسان بعد موته هو عمره الثانى الذى أشار المتنبئ حيث يقول :

ذكر الفتى عمره الثانى وحاجته　　　ما قاته وفضول العيش أشغال

وكان الإمام السالمى — رحمه الله — ممن بذل وسعه فى إظهار حقائق أهل المذهب ، فإن تحفة الأعيان أبرزت عمان وأهلها للعيان ، وجاءت بكل إمام وملك وسلطان ، وأعربت عن أعمال أهل الإيمان ، وأفعال أهل البغى والطغيان ، وإن كانت حديثا خاطفاً فقد أفاد فائدة يحسن أو يستحسن عليها السكوت ، فجزاه الله عن أمة الإسلام خيرا .

ومن حيث إن تاريخ القوم أهمله أصحابه ، وقضى عليه بكل معنى الكلمة بغى الأرهاط التى حلت مكان الأباضية ، فأعدمت كل شىء كان للأباضية فى هذه الأصقاع ، وإنما بقيت نفحات تهب على العالم من عمان والمغرب ، فبقيت روحا تنعش الوجود الأباضى ، وأصبح تاريخ هؤلاء كالشىء الخيالى الذى لا حقيقة له .

وبناء على ما قر فى ذاكرتى ولم يزل ثابتا فى نفسى منذ عهد الصبا من هذا الصدد ، وفى هذه الآونة ظل يتحرك تحرك النبض فى الجسد ، وأنا بين حركاته فى إقدام وإحجام ، يقدمنى حب نشره ويبعثنى واجب ذكره ،

ويحجمني غموضه وعدم المصادر التي يصح الأخذ عنها ، ولكنه كما قيل : من جد واجتهد في أمر وجد ، ولن يضيع حق له مطالب ، وأنا لآن المطالب بهذا الحق وأرجو من الله العون عليه مع الصبر على عنائه ؛ متأثراً بقول من قال : من تهيب أحجم ، ومن أحجم لابد يوما أن يندم ، لأن الإحجام عن الخير قصور أو تقصير ، وكلاهما مذموم ، وعلى كل حال فإن الإنسان يجب عليه أن يقوم في عمله حد طاقته ولا يلام بعد ذلك : (لا يكلف الله نفسا إلا وسعها) .

لاسيما أن نصرة المظلوم واجبة وتاريخ الأباضية مظلوم مهان مهضوم مستهان ، وعلى الأقل شبه مظلوم ومغبون ، وكلاهما أيضا لا يرتضى إلا عند من لا يعرف للتاريخ شأناً ، وهم الكثيرون ، وأى أمة حفظت تاريخها فقد حفظت شرفها .

ولنا في هذا المقام كلام نفيس في صدر تاريخنا (عمان عبر التاريخ) ويبدو أن انتشار المذهب الأباضي في اليمن وحضرموت والحجاز وخراسان في أول القرن الهجري ، فإن قيام عبد الله بن يحيي الكندي إماما في العقد الثاني من القرن الثاني ، وإذ ذاك فالأباضية بهذه البلاد خصوصا اليمن وحضرموت لهم الأكثرية ، وهم غالب أعيان البلاد ؛ إذ هم الذين يشار إليهم من نواحي عديدة ؛ بل من نواحي الزعامات التي تروم السيطرة على اليمانيين ، فإن طالب الحق بويع بالإمامة في نظر المؤرخين غير الأباضيين الذين لهم الاعتناء التام بحقائق التاريخ في الإسلام ، حققوا في كتبهم إمامة الإمام طالب الحق في هذا العهد الذي أشرنا إليه ، وهو سنة ١٢٩ هـ أو قبلها ، وكان جيشه الذي بلغ ثلاثين ألفا لم يخالطهم فيه إلا قدر أربعمائة رجل من أباضية البصرة الذين جلبهم المختار بن عوف المعروف بأبي حمزة كمساعدة للمذكور .

ولهذا ولأمثاله بذلت الجهد واستعنت بالله على خدمة تاريخ القوم لعلى أكون شريكا لهم فيما تصدوا له من نشر الحق ورد الباطل أيا كان ، ولقد حررته بغاية الإيجاز ، أعنى تاريخ الأباضية فى اليمن والحجاز ، سميته الحقيقة والمجاز ، راجيا من الله عز وجل بتحريره ذكرى أولئك السادة الذين يحق لذكرهم الإعزاز ، ويجب أن يجعل لأعمالهم بين الأمم غاية الامتياز ، لأن كل ما حاولوه إظهار الحق والقيام بحقوق الإسلام من كل ما وجب أو جاز ، والله أسأله توفيقه ورضاه وعونه الذى لا يتسنى لنا إلا به إلى رحمته مناط الجواز .

التعريف بحضرموت واليمن على جهة الإجمال

اعلم أن التعريف بهذين البلدين على جهة التفصيل غير ممكن لنا فى هذا الحال الذى فيه نحن الآن ، لضيق وقتنا ، فإنا والحال الذى تحيط بنا حيطته، فى شاغل تترادف فيه الأعمال، ولكنا سنلقى كلمة فى هذه العجالة التى لايزال صراعها يهددنا فنقول :

لا يخفى أن اليمن من الأقطار العربية الواسعة التى عزت مقاماً ، وقد عرف اليمن بقدم الشرف جاهلية وإسلاماً ، ولا شك أن حضرموت من اليمن ألوية وأعلاماً، ومحلا ومقاماً ، يستقل به غالباً فى العهد الأول من الأباضية ملكاً أو إماماً ، فتقدر مساحة اليمن بنحو أربعين ألف ميل مربع ، وقيل بخمسة وسبعين ألف ميل مربع ، ويقدر سكان اليمن بأربعة ملايين نسمة .

يحتوى اليمن على عدة قبائل عربية وأكثر أهله قحطانيون ، وفيهم عدنانيون، أهم بلدان اليمن صنعاً ، وهى العاصمة القديمة فى الجاهلية ، وهى العاصمة الجديدة فى الإسلام ، ثم تليها الحديدة ، ثم تعز ، ثم صعدة ، ثم بيت الفقيه ، ثم اللحية . وهى فرضة على ساحل البحر الأحمر شمال الحديدة ، ثم مبدى ، ثم الصليف جزيرة فى البحر ، ثم زبيد جنوب بيت الفقيه ، ثم مخا بفتح الميم والخاء المعجمة ، وهى ميناء كبير هام ، ثم آب ، ثم الخوخة ، ثم جزيرة الشيخ سعيد، ثم باب المندب وهو مضيق بالبحر بين اليمن والهند .

وفى باب المندب ومخا واقع السادة اليعاربة الدولة البرتغالية كما يقول الشيخ خلف بن سنان الغافرى رحمه الله :

ولدى باب مندب كم دم   طل وكم مال أماله الصمام
وكذا فى مخاقد امتخ منهم   أعظما قبل رومه لا ترام

حضرموت

لا يخفى أن حضرموت كان ينبغي أن نتكلم عليها قبل الحديث عن اليمن، لما لها من العلاقة الخاصة بالأباضية، خصوصاً في ذلك العهد، ولكن من حيث إن حضرموت من أعمال اليمن غالباً قدمنا ذكر اليمن ذكراً خاطفاً لا نقول إنه ذكر — كما يقول المؤرخون — ولكنه إشارة نفتح بها الباب للحديث فنقول :

تقع حضرموت على ساحل البحر الغربي شرق عدن ، وشرقيها سيحوت وبلاد المهرة ، وغربيها وادي عرمة فشبوة فالعبر ، وشمالها الربع الخالي وجنوبيها بحر العرب .

مساحتها

تقدر مساحة حضرموت بعشرين ألف ميل ومائة ألف ميل مربع ، وطول ساحلها أربعة آلاف وخمسمائة كيلو متر عند الحدود الشرقية ، من أشهر بلاد حضرموت المكلا وتقسم خمسة ألوية ، بمعنى إمارة بحسب الاصطلاح ، عاصمتها المكلا ، وثانيتها الشحر وهي بندر شهير ، وميناء كبير ، وثالثتها حجر ، ورابعتها دَوْعن بفتح الدال المهملة وسكون الواو وفتح العين آخرها نون وخامستها شبام — بفتح الشين فباء فألف فميم — وكل لواء يحتوي على عدة مناطق، ويقدر سكانها بثلاثمائة ألف نسمة أو أكثر .

صفة الأباضية

قال صاحب المعالم: إن الأباضية فرقة من فرق الخوارج الكثيرة المتعددة، قال وسموا خوارج لأنهم خرجوا عن طاعة على ومعاوية ، وانفردوا برأى عن رأى الجماعة ، فسماهم الناس خوارج ، قلت قبل كل شيء يقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « ليدع أحدكم اخاه بأحب الأسماء إليه » فأنت يا صاحب المعالم تسمى أهل الحق خوارج تسمية تنبزهم بها إذ خرجوا عن علىّ حين حكّم الرجال فى دين الله، وقد حكم القرآن فى القضية التى حكم على بن أبى طالب فيها، وهو العلم المعروف الذى تزجى إليه المعضلات ، وتساق إليه المشكلات .

وهنا زخرف له المضللون الذين قادتهم الأطماع ، وتحكمت عليهم سلطة حب الرئاسة ، فقادته إلى ما وقع فيه ، أما معاوية فلم يكن الرجل المقارن لعلى بن أبى طالب ، إنما هو والى الأمير عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، الذى يخشاه أبو سفيان قبل معاوية ، وما معاوية إلا على أساوب أبيه الذى ما زال باقياً على كبريائه حتى مات ، فكيف بمعاوية المعروف فيجعل فى عداد الخروج عنهم ، وإنما هو أحد ولاة الإمام على الشام ، وهو الذى خرج على الإمام محارباً له شاقاً عصا المسلمين ، يريد أن يفرق جمعهم ويهدم بناءهم ، ويقلب أمورهم ظهراً لبطن ، ليسيطر عليهم فيكون ملكاً فيهم وزعيماً عليهم ، وعلى الأقل ليشاغل على المسلمين عنه ، بل كل مسلم يعلم خروجه على الإمام الحق الذى ثبتت إمامته باجماع المسلمين ، ولم يعب عليه شيء أبداً ، فإنه جعل إماماً لينظر فى مصالح المسلمين فيولى ويعزل ، نظراً للمصالح العامة ، وقياماً بحقوق الأمة .

ولكن لعلم معاوية أن علياً غير تاركه على ولايته ، فظل يلتمس المناط الذى يتعلق به ليبقى على إمارته التى عشقها وعدها من حقه ، وإنما الحق للإمام يعزل ويولى ، وله النظر فى المصلحة العامة التى تؤيد الإسلام ، فإنه لذلك جعل إماماً ، ومعنى الإمام هو القدوة الصالحة ، فخرج معاوية على علىّ وعلى المسلمين ، بل خرج على الدين لما كان على بن أبى طالب إمام عامة ثبتت إمامته بإجماع خروج عليه يشق عصا المسلمين ولا يبالى بما يكون من خصام ، وما يكون من دماء تسفك على غير حق ، بل خرج على الإمام يشق طريق الخصام ولا يبالى بسفك دماء المسلمين ، ولم يقل له أحد إنه من الخوارج (١) .

ثم ثبت أن الخارجين عن علىّ إنما خرجوا على وجه واضح رأوه خلع إمامته ، وتقيد بالشروط التى شرطوها عليه ، وكان الواجب أن يحكم فيها ذا الفقار حتى تنتهى ، فما وجه نبز أهل الإيمان بما هم بعيدون بُعد الثريا عن الثرى وقوله وانفردوا برأى غير رأى الجماعة .

قلت : هل يلام الذى يرى الحق معه فيقوم به ؟ وما وجه لومه على انفراده ، وإنما شرعوا فى البيعة قبل كل شىء خوف الفشل وتلاشى الأمر وفساد الرأى ، وإن فساد الرأى أن يتردد ، ولو سكتوا لدخل الفشل الضار بالدين عليهم ، ولو تأخر أبو بكر وعمر عن عقد الخلافة يوم السقيفة فى حال موت الرسول عليه الصلاة والسلام ، لوقع الخلاف واتسع الخرق على الراقع ، وهل يتصور إنسان ذو عقل وله دين وإيمان ، أن أبا بكر رضى الله عنه يشتغل عن تجهيز الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، وهو لم يفارقه

---

(١) ذلك لأنه أمير المؤمنين تخشى عصاه وسيفه أما الأباضية فلا . اهـ .

فى حلو ولا مر ، ولا فى حضر ولا فى سفر ، ولا فى خوف ولا أمن ، ويشتغل هنا بحطام الدنيا ورياشها وزهرتها ، لاوربك حاشاه . لكنه خاف أن يقع هدم للدين ، ورأى أن الحفاظ على بناء أمر الدين ألزم ، لأن الفوضى إذا وقعت وقع معها ذهاب الدين من أصله ، فرحم الله أبا بكر ورضى عنه .

وكذلك كان نظر الذين خرجوا للنهروان ، وإذا كانوا كلهم مجتهدين، فعلام يلام فريق ويؤنب ويحترم الآخر ويؤيد بغير موجب ؟ ! أم كان الاجتهاد مخصوصاً بأناس دون غيرهم ولا مخصص من العقل ولا من النقل ، أم كان مقبولا من أناس غير مقبول من الآخرين ؟ إن هذا كله ليس من الحق فى شىء أبداً إلا عند من يرى أن المسلمين ليسوا سواء ، وأن تلك المساواة التى كانت عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وعهد أبى بكر وعمر انتسخت ؛ فالله أعلم بذلك ، وهؤلاء تسرعوا فى بيعتهم لإمامهم خوف أن يقع ماوقع عهد أبى بكر رحمه الله فى السقيفة ، ولكل نيته .

وعلى بن أبى طالب لاينبغى أن يحمل على غير الحال الصالح ، وإنما غره الأشعث الخبيث الذى كان من أول أمره رجل دنيا ، والدنيا والآخرة ضرتان ، وأهل الدنيا وأهل الدين ضدان ، والأشعث يشهد عليه تاريخه قبل أن يكون مع على بن أبى طالب ، وإن كان المرء أيا كان يخطئ ويصيب ، ولما انجزم الأمر بإمامة أبى بكر رحمه الله انسد باب الشقاق، وانعجم ثغر الافتراق ، واستقر الأمر على أساس من الثبات ، يدعمه الإيمان ويعضده الحق .

والخارجون عن على أرادوا هذا الذى أراده أبو بكر وعمر ، وكان على علىّ أن يؤيدهم ، كما قيل إنه كان كذلك يرى حتى أزاله الأشعث ، وكان يصدقه ويعتقد صدقه ، فقاد أصحاب الدسائس أمامهم لقتال تلك الفرقة المؤمنة الزاهدة العابدة الفارة بدينها ، لتجعل لها إماماً صالحا تختاره لدينها وترضاه لدنياها ، إذ ليس الدين خاصا بأحد أوملكا لأحد من البشر ، إنما الدين من صفات المصلحين من المؤمنين ، وأولئك القائمون بالنهروان كل واحد منهم أفضل من معاوية بمسافات ، ولكن القضاء والقدر سابقان للبشر ، قاضيان عليهم ، فمن نسب أهل النهروان إلى الضلال فى عملهم ، تلزمه التوبه إلى الله ، وليعد ما وقع عليهم مصيبة فى الدين أربعة آلاف مؤمن فى ضحوة من النهار بغير موجب ، وبهذا انهارت صروح الإسلام ، وانتقضت دعائمه ، ولم تطل أيام الإسلام الصحيح حتى قام الملك العضوض ، ولكن لله أمر هو بالغه ، وحكم هو نافذه ، وإن رغم أنف الدهر ، ولا شك أن قتل رجال الحق الزهاد العباد الذين أكلت الأرض جباههم وجنوبهم وركبهم من كثرة الركوع والسجود ، له عاقبة سيئة والعياذ بالله ، هل وجدهم قاتلهم يشربون الخمر ؟ أم وجدهم فى بيوت الدعارة ؟ حاشاهم ، بل وجدهم يقرءون القرآن متأهبين لصلاة الجمعة ، وما كان — فيما أعتقد — أن على بن أبى طالب أراد قتلهم ، حاشاه وإنما أراد قتلهم من خافهم على معاوية ، وخاف استفحال أمرهم حيث رأوهم تهاوى إليهم نجوم الحق من سماء الإسلام ، فلسوا عليهم من يتحدث عن أعمالهم الصالحة بالأحاديث الفاسدة ، والأقوال الضالة ، ولم يختبر السامع عنهم فيما ينسب إليهم من البغى والظلم ، ولم يفتكروا فيهم أنهم فروا عن على بن أبى طالب أكرم رجل فى آل النبى ، ولم يرضهم موافقته على

التحكيم حتى أصبحوا فى نظره لصوصاً أو شبه اصوص ، أو شراً من اللصوص بغير حق ، بل للأفعال التى نسبوها إليهم لإرادة الشر بهم ، ولإظهارهم مع الناس بالمظهر السوء ، وماكانوا قتلوا عمار بن ياسر رحمه الله ، ولا راعوا فيهم زهدهم وورعهم ، ولا كونهم من خيار الصحابة وأعيان أمة الإجابة ، ثم ماذا فعلوا لعلى بن أبى طالب بعد قتل القوم ؟ فعلوا رفضه وإلغاء أوامره ، وإلقاءه لأكله ، فإنه أراد قيامهم فلم يقوموا ، ودعاهم للثورة على عدوه فلم يجيبوا دعوته حتى هان أمره ، وضعفت قوته ، فتجاسر عليه من قام له فقتله ، وهذه الأحوال كلها شواهد على سوء البطانة والله المستعان .

قال صاحب المعالم : وانفردوا برأى غير رأى الجماعة ، قلت بل الجماعة انفردوا برأى غير ما رآه هؤلاء المؤمنون ، وإذا كانت القضية قضية رأى واجتهاد ، كما قلنا سابقاً ، فما لهؤلاء القوم يقتلون إخوانهم حيث انفردوا برأى خاص لهم ، رأوا الحق فيه واعتمدوه ! فكيف يقتلون على رأى غير خارج من دائرة الحق والحال ، لا إمام ولا إمامة ، فإن الإمام خلع نفسه عن الإمامة وولاها الحكمين على عهد الله وميثاقه ، أن يوليا من شاءا ويعزلا من شاءا ، فقد اتفقا على خلعه ، واختلفا فى التولية له ، فولى أحدهما معاوية ، وأحرنجم الثانى فلم يفعل شيئاً ، وافترقا على ذلك ، ولما أولئك المؤمنون نهاية الواقع ، وماكانوا يرضون معاوية إماماً فى الدنيا ، فضلا عن أن [يكون] إماماً للدين ، فلذلك تسرعوا إلى البيعة لعبد الله بن وهب الراسبى ، المعروف بذى الثفنات ، فلما وقعت البيعة لزمت وحرم تركها بغير موجب ، فإذا فعل هذا الإمام موجب فسخها لزم خلعه منها ، وإن أصر عليها وجب على المسلمين قتاله ، وذلك كما إذا فسخ إمامته أو جاء

أو ظلم أو ترك واجباً دينياً ، وذلك بعد تتويبه ، فإذا تاب قبل منه ، أما قتل أهل النهروان بغير موجب فظلم وجور وبغى تضج منه السموات والأرض ، ويهتز منه عرش الرحمن حيث يقتل أربعة آلاف مؤمن ، وقيل أكثر حتى قيل هم عشرون ألفا .

دماء عشرين ألفا وسط جمعتهم بغير حق همت كالوابل المنهمر ، فى ضحوة من النهار ، ولم يفعلوا من معاصى الله واحدة ، ولكن أهل الدنيا لا يبالون ، وهذا دأبهم وهم وأهل الآخرة خصمان ، اختصموا فى ربهم وإليه المصير .

قال المصدر المشار إليه وكانوا فيما يروى على الأقل أربعة آلاف مقاتل ، فصمد إليهم على وما زال يقاتلهم إلى أن أفناهم على بكرة أبيهم ، قال ولم يفلت منهم سوى تسعة نفر ، فقيل ذهب منهم اثنان إلى عمان ، واثنان إلى كرمان ، واثنان إلى سجستان ، واثنان إلى الجزيرة ، وواحد إلى اليمن ، فذلك أصل الخوارج .

قلت ليتك عرفتنا أسماءهم حتى يخلدها التاريخ ، فيكون لهم فضل لأنهم أصبحوا عندك أصل الأباضية ، وأنك ترمز بهم إلى هذا الجيل الذى تعرفه فى عمان وفى سجستان وكرمان ، وفى الجزيره واليمن ، فتريد أن تجعل هؤلاء أصلا للخوارج . والمعنى أصلا للأباضية ، كما صرحت بذلك فى مواضع ، حيث علمت أن هذه الأقطار فى الصدر هم أباضية ، فتجعل الأباضية خوارج ، فيكون ذلك مسبة لهم ، ولاشك أن هذا التقسيم من المنهج الذى وضع للافتراق فى الأمة ، وللدخول به على أهل الحق ، فمن هم الاثنان الأولان اللذان جاءا إلى عمان ؟ ليتك أخبرتنا لنعرف بهما العالم ،

فنضع تراجمهما فى التاريخ ، وليعرف أمر هذين الرجلين إن كان حقاً أو باطلا ، والذى أقوله وأنوخاه وأرجو أنه الحق إن شاء الله ، إن هذا افتراء يساق للقدح فى الأباضية المحقة ، وأن على بن طالب كان بيده زمام الأمر ، وإنما التوى عليه حباله بكيد الأشعث بن قيس الكندى الداهية ، الذى فتح دفتى الباب لتتسع شقة الخلاف ، ووضع تخطيطه لعلى بن أبى طالب فى الظاهر ، وهو يريد صالح معاوية الذى بريق الدرهم والدينار لديه له شعاع ، وعلىّ يحسن به الظن ويظنه معه وهو عليه !

ولما وافق على على المسير إلى القوم بزعم الاجتماع عليهم ، اغتنم القوم الفرصة للمرام الذى خططوه ، فلم يشعر على بن أبى طالب إلا والقوم يجتلدون بالسيوف ، ورحى الحرب تدور بين الفئتين ، وقد قالوا قبل هذا الوقت : إن القوم فعلوا وقتلوا وبقروا بطن المرأة وأخرجوا جنينها وقتلوا زوجها : وبهذه الصفة أصبحوا فى شنائع لم تفعلها أمة مجرمة ، فضلا عن أمة تتسمى بالإسلام، وإذ ذاك وعلىّ فى المأزق الحرج لا يدرى ماذا يفعل، وقد قيل والمرء فى المحنة عيي وعلىّ بشر يعتريه ما يعترى البشر، لا كما تقول الشيعة ، وإذا هم يقولون هذا فعل القوم الذين تقول أنت لنا فيهم كيت وكيت ، فما كان من على إلا السكوت ، ولا أظنه أمر بقتلهم ولا أشار إليهم ، ورأى السكوت يسعه حيث قال له القائمون بأمره عن القوم ما قالوا ، ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم . حيث نسبوا إلى أهل الحق مانسبوا، ليتوصلوا إلى الباطل بما حصلوا ، ولا أرى علياً إلا خليا من دماء القوم ، ولا ألومه وهو قاصدهم لتفاهم معهم ، ويتفاوض هو وإياهم ، فإنه ثبت عنه أنه قال إنكم لأهل الجمل يوم الجمل ، وأهل صفين يوم صفين ، وفى رواية لأهل الدار يوم الدار ، وعليه فيحمل على أن الواقع من معرة

الجيش ، وبذلك وقع ما وقع ، وهو لايعلم من المعتدى ، ويجهل المبتدى ، وأصبح الأمر محاطاً بالجهالة ، وبذلك أصبح إمام المسلمين تنهار صروح إمامته بأعمال هؤلاء ، وذلك أنه كلما أراد قيامهم إلى معاوية وإلى الشام ليقلعه ، دسوا له ما يصده ونسجوا له حبل الفشل الذى يعرقله عن حركته ، وهذه خطبة فيهم يرويها الرواة ، مخبرة عن أحوالهم ، شاهدة بما هناك من الأمور المضمرة ، معرفة عن التحقيق لهذا المقام ، وقولهم فر اثنان إلى كذا واثنان إلى كذا إلخ كله لاأصل له إلازخرفة وسفسطة ، وكلهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وفيهم من هو أفضل من معاوية بمسافات يعرفها أهل الحق فى الدين .

وقد وضع أعداء النهروان لتبريرهم أوضاعاً مدسوسة ما جاء بها من سلطان ، ولا قالها أحد من أهل الإيمان ، لأن الجارم لابد وأن يجعل له مبرراً بحسب الظاهر ، قال ويرون — أى الأباضية — أن أهل الكبائر كفار نعمة لا كفاراً بالله ، قلت نعم إن من قال لاإله إلا الله محمد رسول الله فهو مسلم ، له ماللمسلمين وعليه ما على المسلمين من التكاليف ، ومما أوجبه الله فى الدين ، لأن رسول الله كان معه من قال لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وكان يعاملهم معاملة المسلمين كعبد الله بن أبى رأس المنافقين ، وكأبى سفيان الذى أسلم إسلاماً مشوباً بالنفاق فى أمثالهما ، فدل ذلك أن من قال لاإله إلا الله محمد رسول الله حكمه حكم المسلمين ، حتى تتوجه إليه الأوامر فيأباها تهاوناً بها وتمرداً عليها ، وعدم استجابة لها ، فهذا هو كافر النعمة وهو الفاسق والضال والمنافق ، أما المنكر لها فهو الكافر شركاً الذى تحل غنمية ماله وسبى ذراريه لرده على الله ، فهذا الذى لا مقام له مع المسلمين .

قال ويرون دار مخالفيهم دار توحيد قلت كيف لا وقــد نطقوا بالشهادتين ، وصلو وصاموا وحجوا البيت الحرام ، ودانوا لله بواجباته العملية ، قال ولكن دار السلطان دار بغى ، قلت ذلك شريطة إذا كان السلطان متمرداً على الله فى أوامره ونواهيه ، ورآه المسلمون باغياً ، وكل المسلمين يراه باغياً ، ويقولون إنه باغ إلا من أخذ بمذهب المرجئة وهومذهب باطل عاطل لايستقيم عليه الدين ، قال وهم يحتجون على كل من يتهمهم بمخالفة السنة ، قلت متى خالفوها ، أيوم بايعوا علياً أم يوم خرجوا عن الباطل الظاهر ؟ أم يوم قاموا لله واجتمعوا ليقيموا لهم إماماً يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويأخذ بهم إلى طاعة الله ، لاليسرقوا أو ينهبوا أو يفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ، ومن اتهمهم بمخالفة السنة فليأت بحجته وليدل بما لديه ، فإن الحق أحق أن يتبع ، وما بعد الحق إلا الضلال ، ولكنا لانرى من يتبع الحق إلا الأباضية ، أما من عداهم فيتبعون أهواءهم وأهواء أمرائهم ، ويقلدونهم جاروا أم عدلوا ، بل يرون زعماءهم وملوكهم الحجة فى الدين ، وأنهم هم أولو الأمر معهم ، فلذلك يوجبون طاعتهم حتى فى لعن علىّ على المنابر ، وفى ملأ من الناس ، وأن ذلك لايعدونه جرماً ، بل يقولون رضى الله عنهم ، قال ويقولون هم وحدهم الذين لم يحيدوا عن السنة ، قلت نعم إنهم على السنة ما زالوا عنها فى حل ولا ترحال ، ولن يزالوا عليها ، وإذا يزال الأباضية عن السنة فعلى الدنيا العفا .

إن الأباضية تبع السنة النبوية فى الحلو والمر ، ومن عنده انتقاد عليهم فليأت به لاحياه الله ولابياه إن لم يأت .

قال ويزعمون هم وحدهم الفرقة الناجية من أصل الثلاث والسبعين

فرقة ، قلت ليس فى هذا امتراء ، ومن أراد أن يعرف صحـــة ذلك فليحضر ليسمع ، وليس فى فرق الإسلام من ثبت على الحق غير الأباضية ، فإنهم اجتنبوا ما نهى الله عنه ،وفعلوا ما أمر الله به ، وسلكوا سبيل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى الحلو والمر ،وجاهدوا فى الله حق جهاده ، وسوف ترى لهم فى هذا الكتاب المتواضع الهيّن البيّن من أعمالهم ما تعلم منه أنهم على الحق مالم تغالط نفسك فيه ، أو يتولاك الشيطان .

قال وهم لايذكرون من الخلفاء إلا أبا بكر وعمر ، أما عثمان وعلى فلا يعجبانهم ، إذ قد خالفا نهج رسول الله عليه الصلاة والسلام ، قلت هذا كذب محض ، فإن الأباضية يتولون أبا بكر وعمر لأنهما عاشا وماتا على الحق ، وأما عثمان فقد قام عليه صحابه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وعابوا عليه أشياء قاموا من أجلها وحصروه فى بيته ، وهم محاربوه ، فإن كان عثمان على حق فالخارجون عليه المحـــاربون له ضالون بذلك تجب منهم البراءة ، فمالكم تقولون رضى الله عنهم وهم خارجون على إمام الحق ، وإن كان عثمان ظالما وخرجوا عليه لظلمه فمن الواجب القيام على الظالم حتى يرجع عن ظلمه ، وأين الأباضية من عثمان ، فما بال هذه الدعايات الفارغات والمقالات الخاسرة ، فما لهؤلاء القوم لايكادون يفقهون حديثا ، وما هذه الافتراءات المضلة التى لايراعى أهلها للدين حرمة ، أم كون عثمان أمير المؤمنين وكل ما يفعله أمير المؤمنين من الحق والباطل مقبول عند الله ، وهو لذلك يجب أن يحترم ، وإذا كان كذلك فما بال مائة ألف سيف فى المدينة بأيدى المهاجرين والأنصار ، الذين وصفهم الله عز وجل بالاستقامة

فى الدين ، لاتدافع عن الإمام المحق ، فما لهؤلاء الناس لايأتون بالحق الذى يجب على كل مسلم أن يكون عليه .

أما على بن أبى طالب فهو إمام بالإجماع ، بايعه المسلمون عن رضاً به واختيار له من بين أقرانه ، لما يرون فيه المناسبة لمنصب الإمامة فإنها زعامة روحية يراد لها الرجل الفاضل زهداً وورعاً وتقوى وعلماً وشجاعة، هذه هى الخصال المطلوبة فى الإمكان ، وإلا فادونها يكتفى كالعلم والورع والشجاعة، فبالعلم يعرف ما يأتى وما يذر، وبالورع يحمى نفسه عما لايحل له ولايليق به ، وبالشجاعة يستطيع تنفيذ ما أوجب الله من الحدود ، وهكذا كان على بن أبى طالب جمع هذه الخصال التى تراد فى الإمام ، وزاد على أقرانه الستة بكونه من بيت النبوة ، فهو العالم العابد الزاهد الأمين الثقة التقى الذى سلم من الأهواء والتحيزات العنصرية ، متجرداً لله ، قائماً بحقوق الله ، ثابتا على سلطان الله، يتساوى معه البعيد والقريب فى الحق لاتأخذه فى الله لومة لائم ، وهذه هى صفة على بن أبى طالب وهو لم يزل كذلك حتى دخل عليه داخل فى سياسته ليضله عن طريقه ، وهو يعتقد فيه أنه يريد الحق ويدعو إليه ، وهو بطانة سوء لعلى بن أبى طالب ، فلذلك أثر عليه .

وبديهيا أن الرجل إذا كان يعتقد فى صديقه الصفاء والإخلاص ، لايقبل فيه شيئاً ينسب مما يخالف الموضوع ، وهذا عام فى البشر لايختص به على بن أبى طالب ، فكم وقع مثل [هذا] من بطانة السوء ، بل كم قتل ناس من طريق بطانة يختصونها ويستصفونها . ولايعلم الغيب إلا الله ، ولانعتقد فى على ما تعتقده فيه الشيعة ، بل هو

عبد من عباد الله ، وهو هكذا يقول وبسبب بطانته السيئة وقع ماوقع .

ومع ذلك كله فالأباضية لايهجرون اسمَيّ عثمان وعلى لما صدر منهما، أو ما انتقد عليهما من الأحوال ، وهذه كتب الأباضية مشحونة بالنقل عن الصحابة ، ومن جملتهم عثمان وعلى .

وهذا مسند الربيع بن حبيب أصح الكتب بعد القرآن ، والذى عليه المعتمد عند الأباضية فيه المروى من طريق عثمان ، وعلى وهذه آثار الأباضية ، ومشاهير كتبهم مشحونة بالنقل عن الصحابة عامة ، وعن بقية المذاهب الأخرى التى تباين مذهب الأباضية ، فما معنى هذا القول الذى يقوله هؤلاء المفرقون والمغرضون ، والله على لسان كل ناطق ، ولو كان الأمر إلى الأباضية لالتحمت صفوف الإسلام قبل أن تغيب الشمس ، ولما تظلم أحد من أحد مهما كان ، ولكن كل شىء بيد الله فإن الملك والكون له يفعل فيه ما يشاء ، ويحكم ما يريد سبحانه وتعالى .

قال ويقولون ، أى الأباضية : بوجوب نصب الإمام بين المسلمين إذا توفرت فيه الأسباب ، وهى القوة والعلم ، قلت نعم لأدلة من الكتاب والسنة ، ومن المعقول بسطناها فى (إرشاد الأنام) والقوة والعلم من ضروريات صفات الإمام الذى يصلح أن يكون قائد أمة ، أو زعيم عامة ، فإنه إذا كان ضعيفاً فإن ضعفه يؤخره عن القيام بالوجبات التى تناط به ، فإنه لاشك تطالب فيه القوة التى يصارع بها أهل الباطل ، لقوله صلى الله عليه وآله وسلم : « المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف » الحديث ، والعلم هو الأساس الذى يجب على المسلم أن يمشى

عليه ما عاش ، فإنه لاحياة بغير علم لكل ، ولهذا أوجب الله عز وجل طلبه ، وكلف العباد به لقوله عليه الصلاة والسلام : « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » فى أحاديث ، ولاحياة بغير علم ، وبالأخص أهل المناصب ، إذ تتوجه إلى الإمام حدود وولاية وبراءة وما إليهما من جباية الزكاة وبيوت الأموال ، والقيام بمصالح الأمة إلى أشياء عديدة فينظر بالعلم من يقدم على العمل ومن يؤخر ، فإن بالعلم يقوم الدين ، ولهذا أوجب الأباضية العلم فى الإمامة ، فإذا كان قائد الأمة جاهلا كان كما يقول القائل :

إذا كان الغراب دليل قوم　　يمر بهم على جيف الكلاب

والله يتولى من عباده الصالحين ، ولا يكون الصلاح ولا يتأتى إلا بالعلم ، ووجوب نصب الإمام فى الأمة معروف من الكتاب والسنة وإجماع الأمة ، ألا ترى أن الصحابة اشتغلوا بعلاج قضية الإمامة عندما تحققوا موت النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، لما يرون من لزوم أمرها ، فإن النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، لم يدفن بعد ، وهم فى أمر الإمامة ، فإن الأنصار اجتمعوا فى سقيفة بنى ساعدة يتشاورون فى أمر الإمام حتى هموا أن يبايعوا أحدهم ، وعلى الأقل أن يكون منا أمير ومن المهاجرين أمير ، نظراً إلى أن المهاجرين لابد وأن يقوموا بأمر الأمير .

وعلم أبو بكر وعمر فقاما مسرعين فى تدارك الأمر قبل شق عصا المسلمين بالخلاف ، وينهار صرح الإيمان الذى بناه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وفعلا ارتد كثير من العرب ، وهم الذين لم يرسخ الإيمان فى قلوبهم ، ولم تتحقق لهم الحقائق الشرعية التى [أراد] الله هداية

الأمة بها إلى آخر الدهر ، فكان التوفيق حليف المسلمين ، فبايعوا أبا بكر رضوان الله عليه ، فقام بالأمر خير قيام ، ولم يعب عليه فى خلافته حتى توفاه الله والمسلمون عنه راضون .

ثم اتفقت خيرتهم على عمـــر بن الخطاب ، فبايعه الأنصار والمهاجرون ، وأصلح الله به الأمة ، وقد علمت أن الصحابة اهتموا بأمر الإمامة قبل أن يدفن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، نظراً منهم رضى الله عنهم لأهمية الأمر ، ومابرحوا فى أخذ ورد ، وما فرغ المسلمون من تغسيل الرسول عليه الصلاة والسلام إلا وقد فرغوا من تقرير الإمام .

وفى القرآن الأمر بالحدود فى الزنى والخمر والقذف والسرقة وقتل القاتل وقطاع الطرق وغير ذلك ، والمخاطب بذلك الإمام ومن فى معناه من سلطان وأمير وإمام ، فإن هذه ألقاب لا معول عليها ، بل المعول على العدل ولا يخفى أن الإنسان لا يحكم على نفسه ، وليس له أن ينفذ حدا على غيره فضلا عن نفسه ما لم يكن إماماً أو سلطاناً عادلا ، فإن السلطان العادل ظل الله فى أرضه ، سواء كان إماماً أو أميراً أو خليفة أو سلطاناً بحسب الاصطلاح .

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « الحدود والجمعات والفىء والصدقات إلى الأئمة » والمراد من هؤلاء كلهم العادل ، قال الله عز وجل ، لنبيه إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام : (إنى جاعلك الناس إماماً ، قال ومن ذريتى قال لا ينال عهدى الظالمين) .

وقال لنبيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم : (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها) وهذا الخطاب يدخل فيه بعده من يقوم مقامه ، ذلك

لأنه يعلم أنه سيموت ، فإذا مات هل يقوم بها كل فرد فى الأمة ؟ فمن يكون إذن الآخذ ومن المعطى .

ففهم من ذلك أن الزكاة فرض على كل ذى مال ، ولا شك فى وجوب الأخذ من ذى المال ، فلزم أن يكون من إليه سلطة الأمة ، وبيدها أمرها إليها حلها وعقدها ، وإجماع الصحابة من قولهم وعملهم على وجوب الإمامة ، وهو الذى حملهم على مبايعة أبى بكر رحمه الله حالا حتى لا يمضى وقت إلا والأمة تحت راية إمامة .

وكذلك الأمر فى تعجيل إمامة عمر رضى الله عنه ، لولا وجوبها لكان لقائل أن يقول : ما حاجة على الإمامة وليترك الناس على ما هم عليه ، ولكنهم لم يتركوهم ، بل بايعوا بعد عمر عثمان بن عفان ، ثم بايعوا بعد عثمان على بن أبى طالب . وهكذا وبذلك أجمعت الأمة على وجوب الإمامة .

والأباضية عملوا بذلك الواجب كما شرعه الله عز وعلا ، قال : وإن القريشية عندهم ليست بشرط فى الخلافة . قلت : نعم إن وجد المستقيم فى قريش حسنت بيعته ، وإذا بويع وجبت طاعته لا من حيث إنه قرشى ، بل من حيث إنه صالح ، فإن المطلوب فى الأمة الصلاح ، وهل لقريش مزيد فضل بدون الصلاح ، فإن الله عز وجل أمر بالصلاح ودعا ، وحديث : « الأئمة من قريش » وحديث : « قدموا قريشاً ولا تتقدموها » للعلماء فيهما أقوال .

والواقع أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم يول قريشاً فقط ، وإنما ولى من عدة قبائل فى العرب ، وصحة الإمامة أصل لصحة الولاية ،

فإنها فرع عليها ، وما جاز فى الأصل جاز فى الفرع ، ولم يجعل الله عز وعلا الأمر فى أمة خاصة أو فى قبيلة خاصة ، أو فى بلد خاصة .

ويقول الله تبارك وتعالى فى كتابه العزيز : (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) ، فحينئذ جعل الله عز شأنه أكرم عباده عنده أهل التقوى ، وقال عليه السلام : « لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » فحينئذ المطلوب للإمامة المعروف بالتقوى على سواه ، وصاحب العلم مقدم على سواه ، وهذا الذى يؤيده العقل والصالح مع العلم مقدم أيضاً على غيره ، ممن لم يكن مثله .

ولا شك أن العقل قاض بتقديم العالم على الجاهل ، وبتقديم الصالح والأصلح على من دونهما ، وهذا فى إمامة الصلاة ، فكيف به فى الإمامة العظمى التى تناط بها المهام الكبرى كالحدود وسائر الأحكام التى لا تصح إلا من الإمام الأعظم أو من ينوب عنه بأمره ، وكالولاية والبراءة ممن تجب فى حقهما ، فإن الدين مفروض على أصول .

ويقـول الله عز وجل لإبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام : (إنى جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتى قال لا ينال عهدى الظالمين) فى آيات أخرى .

قال المصدر المشار حاكيا عن الأباضية قولهم : بل يكفى أن يكون الخليفة متصفاً بالفضيلة سائرا بموجب الكتاب والسنة لتصح خلافته ، فإن انحرف عنهما وجب خلعه . قلت نعم هذا هو الحق ، ولا شك أن من كان سائراً بمقتضى الكتاب والسنة فقد أخذ حظه من العلم ، وصحت

خلافته ، وليس بعد الكتاب والسنة من سبيل للمؤمنين ، بل كلف الله بهما عباده وألزمهما اتباع أوامرهما واجتناب نواهيهما ، وأهلا ومرحباً بمن كان كذلك ، فإنه من رجال الله الذى ينظر الله إليهم فى أدوار حياتهم وبهم يرحم الله عباده ، ولله در الأباضية حيث كانوا على هذه الحال من أول يوم وُجدوا فيه .

نسأل الله أن نعيش على سيرة أهل الفضل فينا ، وأن نموت على سيرتهم .

وقوله : فإن انحرف عنهما أى الكتاب والسنة وجب خلعه. قلت : نعم إذا انحرف الأمير عن مقتضى الكتاب والسنة فقد تهور فى أعماله ، ورجع القهقرى ، ولا بد أن يكون تعلق بالهوى وخلع ربقة التقوى ، فلا يصح أن يبقى على هذا الحال إماماً ، فإن الأمة تتبعه فى تهوره وتنهار فى دينها تبعاً له ، فإن الأمة على دين ملوكها ، وكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، والله ولى كل شىء ، وليس من الحق أن نترك المنحرف عن واجب الكتاب والسنة لا عقلا ولا نقلا فيما علمنا ، ولو أطلنا البحث لنأى بالقارئ فنكتفى بهذا المقال تعليقاً على كلام صاحب المعالم .

قال ويقولون — أى الأباضية — إن القرآن هو كلام الله تعالى وهو كقول المأمون العباسى خلقه الله تعالى ، قلت الأباضية يقولون إن الله خالق كل شىء والقرآن شىء من الأشياء . وقال تعالى : (وخلق كل شىء فقدره تقديراً) والقرآن كما قلنا شىء من الأشياء ، وهو كلام الله خلقه الله وقدره بحسب

الحوادث التى ستكون من العباد كما اقتضاها قضاؤه وقدره ، فإن دلائل الحدوث فى نفسه ظاهرة ، وهى شاهدة بخلقه ، ولو كان غير مخلوق لكان قديماً ، ولو كان قديماً لكان مشاركاً لله فى صفة القدم ، ولو شاركه فى صفة القدم لتعددت القدماء ، ولو تعددت القدماء انتفى قدمه الخاص به الذى اتصف به ، فإنه صار له فيه شركاء وهذا ظاهر الفساد ساقط الاعتبار ، ولو كان متكلماً كخلقه لزم له ما يلزم لخلقه من اللسان التى هى آلة الكلام ، ولزم له أشداق وفم يخرج منه الكلام ، وهذا باطل عقلا .

ثم وصفه الله بأنه حادث فى قوله عز وجل : (ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون) ووصفه بأنه منزل من اللوح ، وكان حالا فيه والتنزيل صفة الحدوث ، وكونه حالا فى اللوح ، فاللوح حادث ولا يحل فى الحادث إلا حادث عقلا وبديهة وهذه الصفات كلها تعطى منتهى الحدوث .

ووصفه بأنه آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم وصدورهم حادثة ، والحال فى الحادث حادث قطعاً ، لأن القديم منزه عن الحوادث ، فالله عز وجل لا يطرقه معنى الحدوث ولا يليق به تعالى وإلا لم تصح الصفات الكمالية له تعالى ، وكلام الله ليس على وتيرة كلام الخلق ، وإن كان الكلام المعروف هو ما على المنهج المألوف تتألف كلماته من الحروف ، فإن الله جل جلاله خالق الحروف والأصوات والآلات التى بها يتكون ، والله منزه عن هذا كله قطعاً .

ولنا قصيدة نونية فى خلق القرآن جامعة لجميع صفات القرآن وحاوية لجميع صفاته ومعربة عن قواعد مبانيه كفيلة بكل ما يلزم فيه من أراد الاطلاع عليها فن الممكن .

قال المصدر اليماني الذي نتحدث عنه وأنه تعالى لا يرى بالأبصار في الجنة ، أي يقول الأباضية ذلك ، قلت نعم إن الله لا يرى في الجنة ولا في غيرها ، ولا يصح أن يرى ولو صح أن يرى لكان غير إله ، فإنه إذا كان يرى كان مظروفاً محاطاً متبعضاً متلوناً متميزاً في جهة من الجهات ، وهل يرى لكل أهل الجنة أم لبعضهم؟ فإذا كان يرى فهل في كل وقت أم في أوقات مخصوصة ، ويكون في غيرها محجوباً فالكل لا يليق به تعالى ، فإنه إن كان يرى فقد شابه المخلوقات والله يتعالى عن ذلك ، وما أظن هذي إلا من دسائس اليهود أعداء الله الذين قالوا لنبيهم موسى عليه السلام : أرنا الله جهرة ، فزجرتهم الزواجر فلم ينزجروا ، وأرسلت عليهم الآيات فلم يتفكروا ، وابتلاهم الله تعالى بعدة أشياء فلم يمتثلوا ، وتأولوا القرآن ليضلوا به أهل العقول وحرفوه ، ووضعوا لإضلال الأمة أوضاعاً دسوها على ضعفاء المسلمين .

قال المصدر اليماني حاكياً عن الأباضية قالوا : وإن الثواب والعقاب أبديان. قلت نعم إن ثواب الله لعباده المؤمنين الجنة ، وإن عقاب الله لأعدائه النار ، وإن الجنة والنار لا يفنيان ، ومن اعتقد فناءهما كفر شركاً ، لأن الله قال في الجنة : (خالدين فيها) . وكذلك قال في النار والعياذ بالله منها في مئات من الآيات ، وصرح جل وعز بذلك . فالثواب والعقاب أبديان ، وكذلك ثبت في السنة النبوية ، إذ قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار جيء بالموت فيذبح بين الجنة والنار ، وينادي مناد يا أهل الجنة خلود ولا موت ويا أهل النار خلود » .

وعلى هذا عقيدة الأباضية متابعة القرآن وسنة المصطفى من آل عدنان

صلى الله عليه وآله وسلم ، ومن خالف هذه العقيدة متأولا فهو فاسق ضال منافق كافر نعمة ، ومن خالفها بغير تأويل فهو كافر شركا ، قال ويقولون إن الله يغفر الصغائر ولكنه لا يغفر الكبائر إلا بالتوبة ، قلت نعم العقيدة التى يسندها القرآن ويدل عليها البرهان :

قال عز وجل : (إن الله لايغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء)،(والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم)الآية ، وثبت فى الصحيح أن الصغيرة معفوة باجتناب الكبيرة إلا إذا أصر عليها صاحبها، فإن نفس الإصرار يجعلها كبيرة ولايكتب الملك على العبد الصغيرة ما دام لا يقارف الكبائر ، فضلا من الله ومنة :

وذلك لأن الصغائر من الأمو التى تعم البلوى ، فعفا الله عز وجل منها عباده عندما يجتنبون الكبائر ، فإنها هى التى يعصى بها الإنسان ويستحق بها العذاب عنده ، ومن تاب من ذنبه سواء كان الذنب كبائر شرك أو غيرها ،فإن الله يغفرله ذنبه ويعفيه مما اقترف ، فهو الذى فتح باب التوبة لعباده الذين رجعوا إليه ناكصين عما اقترفوا راجعين بالاعتراف لحقه ، وبفضله عز وعلا جعل باب التوبة مفتوحا لعباده حتى تطلع الشمس من مغربها ، ومقبولة من العبد مالم يغرغر بالموت فضلا منه تعالى ومنة .

وهنا ينسد عنه باب التوبة وليس هناك باب بحسب ما هو فى نص الحديث، وإنما هو كناية عن قبول التوبة وردها ، كما قال عز وعلا : (والكلم الطيب يرفعه) فإنما هو كناية عن قبوله ، ولايخفى أن المقبول أياً كان مرفوع الرتبة معنوياً لا حسياً ، والحمد لله الذى يقبل التوبة عن عباده

ويعفو عن السيئات ، وهذا من أعظم منن الله على عباده ، وكم رغب عز وعلا فى التوبة ودعا إليها فى القرآن ، وكم حض عليها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى سننه ، وكم دعا أمته إليها .

قال المصدر المذكور : وهم يرجعون إلى الكتاب والسنة فقط ، ولا يعملون بالإجماع والقياس . قلت فى هذه الجملة حق وباطل :

أما الحق فهو قوله يرجعون إلى الكتاب والسنة، وأقول نعم المرجع إليه كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام، وهما اللتان قال فيهما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا كتاب الله وسنتى » فى أحاديث أوردها أهل العلم فى هذا المقام .

وأما الباطل فهو قوله : ولا يعملون بالإجماع والقياس، وهذا افتراء عليهم أو جهل بمذهبهم ، أو غباوة عما عليه القوم أو تعام عماهم عليه ، أو هو لا يعرف الإجماع والقياس ، وكان عليه أن يطلع على عقيدة القوم وعلى آثارهم حتى يتكلم إن شاء عن خبرة ، وأراه أخذ هذا الكلام عن شكيب المعلق على كتاب حاضر العالم الإسلامى ، فيتوجه النقد عليهما ، لأن الجهل من الرجلين والقصور والتقصير منهما معا ذلك أعنى الأول بجهله ، والثانى بعدم التحقق عن الموضوع الذى يروم نشره ، فإن بكل واد بنى سعد وإن الناقد بصير ، فما الداعى على أن ينسب القوم أمراً لا أصل له ، والقضية دينية شرعية فقهية ، فما باله يقول ما لا يعلم ، فإن الله سائله عما قال و(ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) فلعل الأباضية يقومون عليه بين يدى الله ، يقولون ياربنا نسب هذا إلينا ما لسنا منه من قبيل ولا دبير ، وإذا عجز عن الجواب كان مدينا بما قال .

ثم قال أيضاً : إن الأباضية يقولون : إن كل مسلم مكلف أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، قلت نعم إن القرآن يقول بذلك ، قال الله عز وجل : (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر) فوصفهم بهذين الوصفين عموما ، ولم يخص أحداً من أحد ولا نوعاً من نوع ، وكذلك بقية الآيات تقول ، بل حتى النساء دخلن فى عموم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، يقول الله عز وجل : (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) .

وهذا واضح يؤيده العقل ، وقد وردت به أيضاً أحاديث عديدة صحيحة أوردها العلماء فى مؤلفاتهم : لانطيل بها فنعم يقولون بما يقول ربهم ، ويعملون بما أمرهم أن يعملوا به ، وكل هذا يشهد لهم بصدق عقيدتهم .

قال نفس المصدر المتكلم عنهم فى معالمه : وإن على كل مسلم واجبات مفروضة نحو أخيه المسلم ، فمن لم يقم بما فرض عليه من هذا التضامن الدينى خسر حقه فى حنو إخوانه عليه ، قلت نعم هذا هو الصحيح الذى جاءت به الشريعة الإسلامية فى نصوصها المضيئة إضاءة الشمس يقول الله عز وجل : (إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم . . . .) ويقول : (وتعاونوا على البر والتقوى) ، (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا) ، وكونوا عباد الله إخوانا وعلى الخير أعواناً ، ومعنى كونوا إخواناً أى كل واحد منكم يجب عليه أن يكون للمسلم كالأخ لأخيه فى حنوه عليه وشفقته ورعايته ، والاهتمام بشأنه لاسيما إن نزل به كارثة أو وقع فى مأزق أن يكون له عونا فى كل أحواله ، وأن ينصحه إذا استدعى الحال إلى النصيحة ، وأن ينصح

له أيضاً، والمسلم أخو المسلم لايظلمه ولا يخذله ولا يخطب على خطبته ، ولا يساوم على سومه ، ولا يؤذيه حتى بقتار ريح الطعام ، وكل ما يدخل عليه الشره من نحو الطُرف التي يراها أولاده وأهله وذووه الذين هم بجواره ، لأن الإسلام جاء ليلحم بين المسلمين فيجعلهم كشيء واحد ، وبذلك يستحكم أمرهم .

ألا ترى أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم آخى بين المسلمين من الأنصار والمهاجرين حتى آخابين المهاجرين بعضهم مع بعض ، وكذلك الأنصار لقصد أن يكونوا يداً واحدة ولساناً واحداً وعقيدة لحمة وسداة، ومن لم يكن كذلك فليس منهم فى شيء .

قال المصدر المشار إليه : ووجبت معاملته نظير عدو إلى أن يتوب وينيب ، أى يرجع عما هو عليه ، ثم قال هذا ما ذكره الأمير شكيب أرسلان فى حاضر العالم الإسلامى ، ومثله فى الملل والنحل للشهرستانى ، قلت نعم وإن كان خلطا فيما قالا فإنما هما كما يقول القائل :

وإذا أراد الله نشر فضيلة　　طويت أتاح لها لسان حسود

وكم طويت فضائل الأباضية بيد الحسد ، وكم معالمهم فى أدوار شتى من العالم الحيوى الذى مازال الأباضية يظهرن فيه ظهور الشمس فى رابعة النهار ، ولكن أين المنصف الذى يعرف لكل فضل فضله، ويعطى كل أمة حقها .

نسبة الأباضية

قال المصدر اليمانى الذى نأخذ عنه روايتنا فى هذا الصدد : وهم — أى الأباضية — ينتسبون إلى عبد الله بن إباض بكسر الهمزة وقد تلفظ بفتحها، فلذلك سموا إباضية قال : وهو المذهب الغالب فى بلاد عمان ، قال ومنها امتد إلى زنجبار ، وقد ظهر هذا المذهب فى شمال أفريقية فى أواسط القرن الثانى للهجرة ،وانتشر كثيراً بين البربر ، قلت لقد ذكرنا هذا الذى قاله المذكور فى كتبنا « العرى الوثيقة شرح كشف الحقيقة » و« إزالة الوعثا عن أتباع أبى الشعثا» وفى « أصدق المناهج » وبينا كل ما يلزم وما ينبغى فى بعضها بإيجاز ، وفى بعضها ببسط ، وكذلك أيضا جاء فى كتابنا « المعهد الرياضى فى حلقات المذهب الأباضى » ولكنا لم نذكر شيئاً عن أحاديث أوردها صاحب المعالم فاستعرضناها هنا لنبين الوجه فيها حتى يعلم الناس عن هذا المذهب مورده ومصدره ، وليعلموا أن الحق لم ينأ عنه قيد شعرة :

قال كان نظر الخوارج يعنى الأباضية بدليل قوله فى آخر كلامه ، ولعل هذا القدر كفاية فى التعريف بالأباضية تمهيداً للحديث عن أباضية حضر موت ،فإن هؤلاء — أى أباضية حضر موت — فرع من أولئك ، أى أن أباضية حضرموت فرع من جمهور الأباضية ،لافرق بينهم . قال كان نظرهم إلى خلفاء بنى العباس كنظرهم إلى خلفاء بنى أمية كلهم لايصلح للخلافة فيهم أحد ، فإن المسلمين خرجوا عن عمر بن عبد العزيز غير راضين عنه وهو أفضل رجل فى بنى أمية حتى أطلق عليه العبد الصالح :

ذلك أنه لما تولى الخلافة دخل عليه الأباضية وطلبوا منه رد أحداث

بنى أمية، فقال لهم : اتركونى أحيى كل يوم سنة وأميت كل يوم بدعة ، وذكر لهم رأيه فى ذلك . فقالوا له : الإمام العدل لاتسعه التقية لازم تقوم حالا برد أعمالهم المخالفة لأوامر الشرع ، فقال أمهلونى للغد ، وهو يريد اجتماع الناس للصلاة فلم يقبلوا منه ، وقال له ابنه عبد الملك : ياأبتى ومن لك أن تعيش إلى الغد وأنت الآن قادر ، وكان أراد استعمال السياسة فى الأمور ويراها أولى فى ذلك الحال ، وهؤلاء لايرون مارآه فخرجوا عنه مغاضبين له ، فلامهم العلماء الذين لهم البصائر الواعية على ذلك ، لأن رد تلك الأحداث التى يشيرون إليها ليس بالهوينا ، وربما ثارت من أجلها فتن وهكذا كان الحال . ويرون كما يقول فى ضحى الإسلام. لم يختر اختياراً صريحا ، ولم يستوف الشروط التى يجب توافرها فى الإمام ، وكلهم يجب الخروج عليه ومقاتلته وعزله إن أمكن وقتله إن أمكن .

والمعنى أن الإمام يجب أن يكون عن رضا أهل الحل والعقد، وإذا قام وانحرف عن الجادة المشروع سلوكها يجب أن يعزل ، وإن لم يعتزل يقتل كما قتل المسلمون عثمان بن عفان بعد ما بايعوه على وتيرة من قبله، وعدل فيهم ست سنين لم يقولوا فيها شيئاً ، بل كلهم راضون عنه . . . . . خاضعون لأمره ، حتى دخل عليه أهل الأغراض الدنيوية وأدخلوا على أفكاره أشياء ما كان يظن تبلغ مابلغت حتى انتهى أمره بقتله فقتلوه ؛ ولم يبالوا به لأنهم رأوا أنهم يقتلونه دينا .

وما مثار معاوية فى طلبه هذا إلا حيلة أرادبها شق العصا لعلى ، لعلمه أن عليا يعزله فإن دمه إلى أولاده وأولاده تحت راية الإمام العادل ، وهو على بن أبى طالب ، بل على أحفى بالأنتصاف من المجرمين ، وأى جريمة أكبر من قتل إمام المسلمين بين ظهرانى المسلمين ، وهم

قادرون على الانتصاف من القاتل لو كانوا رأوا أن قتله كان حراما وهم خيار المسلمين بقية الأنصار والمهاجرين ، وكيف وقد بايعوا عليا ليقوم بواجب الدين ، ولذلك لم يقم على علىّ أحد من المسلمين فى شأن قتل عثمان ، حتى إنه لم يشيعه عند دفنه من أخيار المسلمين ، بل ولا من أشرارهم ، ولم يتركوهم أن يدفنوه فى البقيع حيث يدفن المسلمون موتاهم ، بل دفنوه فى حش كوكب شرقى البقيع ، فجاء معاوية أيام خلافته حين صارت السلطة إليه فأمر بإدخال حش كوكب فى البقيع .

فالأباضية لشدّتهم فى الدين ومراقبتهم لأوامر رب العالمين يشتدون نظراً لتلك السيرة التى سار عليها أبو بكر وعمر رضى الله عنهما وسارها عثمان فى سنته الأولى .

أدب الاباضية فى نظر أحمد أمين

لقد تكلم أحمد أمين فى الجزء الثالث منه الذى سماه ضحى الإسلام ، قال : لقد كان فيهم كل العناصر التى تكون الأدب عقيدة راسخة لاتزعزعها الأحداث ، وتحمس شديد لما تصون بها الأرواح والأموال ، وصراحة فى القول والعمل لاتخشى بأساً ولاترهب أحداً ، وديمقراطية حقة لا ترى الأمير ولا العظيم إلا خادمهم ، ورسم الطريق عندهم الذى ينبغى أن يسلكوه رسماً مستقيما واضحا لاعوج فيه ولاغموض يجب أن يعدل الخليفة والأمراء وألا يقاتلوا ليحل محلهم مسلمون مخلصون طاهرون ، ويجب أن يسير المسلمون بحسب نصوص الكتاب والسنة من غير أن ينحرفوا عنها قيد شعرة ، قلت هذا هو الصحيح وهذا المنهج الذى نهجه أئمة الأباضية فى كل الأجيال ، ومن ظن غير ذلك فليقرأ تواريخهم ، ومهما وجد هفوة واحدة لم تشملها النصوص الصحيحة فيعلنها للملأ فى كل مقام ، وإذا انحرف الأئمة عن واجب الكتاب والسنة يقام عليهم ليرجعوا إلى الكتاب والسنة ، وألا يقاتلوا فإنهم لم ينصبوا للهوى أو لاتباع ما تهوى الأنفس ، بل أقيموا للناس ليحملوهم على نهج الشريعة الإسلامية لاغير ، وإلا عم الفساد وانتشر الضلال ، ويجب أن يسلك المسلمون السبيل الصحيح من غير مجاملة ، ولا مجاملة ولامواربة ، ويجب أن يقابل الواقع كما هو ويشخص كما هو ويعالج كما هو على طريقة عمر ابن الخطاب لاعلى طريقة عمرو بن العاص .

قلت : لو قال لا على طريقة معاوية بن أبى سفيان . قال ووراء ذلك كله نفوس بدوية يعنى معها الصراحة ، قال غالباً فيها الاستعداد للقول

وفصاحة اللسان ، وفيها كل ما نعهده فى البدوى من قدرة على البيان ، أى فى الحجاج وسرعة البديهة وأداء المعنى ، بأوجز عبارة يصفهم بالصفا وحضور الأذهان وإقامة الحجج الناصعة والبلاغة الصحيحة والفصاحة الصريحة .

قال مصدرنا اليمانى : نرى من هذا كله العاطفة القوية والأداة الصالحة للتعبير عنها ، قال وهذا الذى ذكرناه جعل لأدبهم لوناً خاصاً ، فأدبهم أدب القوة أدب الاستماتة فى طلب الحق ونشره وأدب التضحية ، فلا تستحق الحياة البقاء إلا بجانب العقيدة أدب التعبير البدوى الذى لا يتفلسف ولا يشتق المعانى ويولدها يغضبون للعقيدة وللإسلام عامة ، بقطع النظر عن الأشخاص ، و إن نظروا للأشخاص ، ففى ضوء العقيدة لا كما يفعل غيرهم ، وقد يرثون ويبكون ، ولكنهم حتى فى رثائهم وبكائهم أقوياء يذرفون الدمع ليسفكوا الدم ، ويكون الميت ليتشجع الحى ، ويندبون المفقود ليرسموا المثل الأعلى للموجود لا يعرفون هزلا فى الحياة ، ولا يعرفون هزلا فى الأدب ولا يعرفون خمراً ولا مجونا ، بل لا تجد الخمر والمجون فى أدبهم ، إنما يعرفون الجهاد والقتال والتربية المتزمتة القاسية التى تخرج رجالا أقوياء لا يحرصون على الحياة فكذلك أدبهم . انتهى ما قاله فى ضحى الإسلام بشأنهم .

صوت طالب الحق يبد أظهوره

لكل شيء مبدأ ينبلج منه وعهد يقوم فيه وعهد طالب الحق يعرف مبدأه بهذه الآونة .

قال فى الأغانى : أخبرنى الحسن بن على الخفاف ، قال حدثنا أحمد بن الحارث الخراز عن المدائنى عن محمد بن أبى محمد الخزامى ، وخلاد بن زيد وعبد الله بن مصعب وعمرو بن هشام وعبد الله ابن محمد الثقفى ويعقوب بن داود الثقفى وحريم بن أبى يحيى : أن عبد الله بن يحيى الكندى أحد بنى عمرو بن معاوية كان من حضرموت ، وكان مجتهدا عابداً ، وكان يقول قبل أن يخرج : لقينى رجل فأطال النظر إلىّ ، وقال ممن أنت ؟ فقلت من كندة ، فقال من أيهم ؟ فقلت : من بنى شيطان ، فقال : والله لتملكن ولتبلغن خيلك وادى القرى ، وذلك بعد أن تذهب إحدى عينيك ، فقد ذهبت وأنا أتخوف ما قال لى وأستجير بالله ، أى من ذلك الكلام الذى قاله لى ذلك الرجل ، وما يترتب عليه ، قال : فرأى باليمن جوراً ظاهراً وعسفاً شديداً ، وسيرة فى الناس قبيحة ، فقال لأصحابه : ما يحل لنا المقام على ما نرى ولا يسعنا الصبر عليه ، وكتب إلى أبى عبيدة مسلم ابن أبى كريمة مولى بنى تميم ، وكان ينزل فى الأزد وإلى غيره من الأباضية : أى كتب عبد الله إلى أبى عبيدة وغيره من الأباضية بالبصرة يشاورهم فى الخروج ، فكتبوا إليه إن استطعت ان لا تقيم يوماً واحداً فافعل ، فإن المبادرة بالعمل الصالح أفضل ، ولست تدرى متى يأتى عليك أجلك ، ولله خيرة من عباده يبعثهم إذا شاء لنصرة دينه ويخص بالشهادة منهم من يشاء .

قال وشخص إليه أبو حمزة المختار بن عوف الأزدى أحد بنى سليمة وبلج بن عقبة بن الهيصم الأسدى فى رجال من الأباضية قدموا عليه حضرموت ، فحثوه على الخروج وأتوا بكتب أصحابه يقولون له : إذا خرجتم فلا تغلوا ولا تغدروا واقتدوا بسلفكم الصالحين ، وسيروا سيرتهم فقد علمتم أن الذى أخرجهم على السلطان العيب لأعمالهم . فدعا أصحابه فبايعوه وقصدوا دار الإمارة وعلى حضرموت إبراهيم بن جبلة بن مخرمة الكندى فأخذوه فحبسوه يوماً ثم أطلقوه فأتى صنعاء .

ظهور الأباضية

قال المصدر الذى أورد أحوال الأباضية : وكلما نعرفه عن الأباضية حتى الآن ظهورهم فى حضر موت كقوة سياسية ذات شأن بدأ سنة ١٢٩هـ ، والمعنى كانوا قبل هذا الوقت من جملة أهالى حضرموت تشملهم الإمارة الأموية ، ولكن عندما أعلن عبد الله بن يحيي الكندى المعروف بطالب الحق ثورته على آخر خليفة أموى كما سبق ، أى عندما قامت إمامته قام معلنا الثورة ، قال : واستقل بالأمر فى حضر موت واحتل اليمن والحجاز . قال وتتلخص دعوته فى هذا الجزء من خطبته التى ألقاها فى جامع صنعاء عقب احتلالها ، فقد قال : أى إن عبد الله بن يحيي رحمه الله لما احتل صنعاء ، وتم له الأمر فيها ، خطب أهل صنعاء خطبة أبان لهم فيها ما يدعو إليه وما يأمر به وما ينهى عنه . فقال رحمه الله :

« إننا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام ، وإجابة من دعا إليهما ، الإسلام ديننا ومحمد عليه الصلاة والسلام نبينا ، والكعبة قبلتنا والقرآن إمامنا ، رضينا بالحلال حلالاً لانبغى به بديلا ، ولانشترى به ثمناً قليلا ، وحرمنا الحرام ونبذناه وراء ظهورنا ، ندعوكم إلى فرائض واجبات بينات وآيات محكمات وآثار نقتدى بها ، وأشهد أن الله صادق فيما وعد وفيما توعد ، عدل فيما حكم ، ندعو إلى توحيد الرب واليقين بالوعد وأداء الفرائض والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والولاية لأهل الله والعداوة لأعداء الله » .

هذه خطبة الإمام الرضى طالب الحق رحمه الله ، فهل سمعتم أيها

المسلمون من يدعو إلى طاعة الله و طاعة رسول الله ، وطاعة أهل الحق من المسلمين فيمن سبق من أمراء غير الأباضية رحمهم الله .

ثم ذكر المصدر المشار إليه بعد هذا طرفاً من خطبة أبي حمزة الشارى رحمه الله لمجرد التنظير ، حيث يقول فيها :

« إنا لم نخرج من ديارنا وأموالنا أشراً ولا بطراً ولا عبثاً ولا غدراً، ولكنا لما رأينا مصابيح الهدى والحق قد عطلت ، وعنف القائل بالحق وقتل القائم بالقسط ، ضاقت علينا الأرض بما رحبت ، وسمعنا داعياً يدعو إلى طاعة الرحمن وحكم القرآن ، فأجبنا داعي الله ، ومن لم يجب داعي الله فليس بمعجز فى الأرض ، أقبلنا من قبائل شتى كل جماعة منا يتعاقبون على بعير واحد عليه زادهم ، أى فقط لحمل الزاد لا لركوب ، لأنا فقراء لسنا ملوكاً ولا نريد ما يريد الملوك ، وأمثالهم من الأمراء قليلون مستضعفون فى الأرض ، فآوانا الله وأيدنا بنصره فأصبحنا بنعمته إخواناً ، ثم لقينا رجالكم بقديد ، أى الموضع الذى وقعت فيه الوقعة قد اعترضونا ليصدونا عما له خرجنا ، قال فدعوناهم إلى طاعة الرحمن وحكم القرآن ، ودعونا إلى طاعة الشيطان وحكم آل مروان ، فشتان لعمر الله ما بين الرشد والغى ، قال وأنتم يا أهل المدينة إن تنصروا مروان وآل مروان يسحتكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا ويشف صدور قوم مؤمنين » .

هذا الذى أورده المصدر اليمانى فى المعالم ، فانظر أيها العاقل بين الدعوتين واعتبر ما يدعو إليه أبوحمزة وما يدعو إليه المراونة الطغاة وأمثالهم ، تجد الفرق وتفهم القصد وتعلم الحقائق .

ثم أخذ فى الحديث عن ابن عطية وسيده وخليفته ، ثم ذكر الذين تعرضوا لقتله فى الطريق هو ومن معه بمن قتل من رجال الأباضية ، ولما قعد قاتله على صدره طلب العفو منه ودس له الحيلة ليعفيه . فقال له : يا عدو الله أترى أن الله كان يمهلك أو تطمع فى الحياة وقد قتلت طالب الحق وأبا حمزة الشارى وبلجاً وأبرهة ، أى هؤلاء هم سادة رجال الأباضية . قال فقتله وبعث برأسه إلى شبام ، ثم ذكر ثورة ابن أخيه على حضرموت وما كان منه فيها بجيش كثيف من طغام اليمن الذين سيطر عليهم ، وفعل الشنائع فى أباضية حضرموت ، إذ قتلوا الرجال والنساء والصبيان ، وهم أن يعدم حضرموت من الأباضية حتى الأطفال .

وهذه أفعال هؤلاء الناس وتلك أفعال الأباضية الذين لايتعدون حدود الله ولا يرضون بغير ما حكم الله ، ولا يرضون بتخريب الديار التى يدخلونها فاتحين ، ولايرضون أن يكدروا صفو أحد من المسلمين لم يخرج لمحاربتهم ، وهؤلاء خربوا دور هينن وقعوضة والخينيق وحورة وكثيراً من دور شبام ، والحقيقة أخبرنا القرآن عنهم إذ قال : (إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون) ، أى وهذا دأبهم .

ثم أخذ المصدر فى الكلام عن العباسيين فقال : وجاء العهد العباسى فلم يكن الحال فيه بحضرموت بأحسن من الحال فى العهد الأموى ، قال فسرعان ماقتلت الأباضية عاملهم أى الوالى عليهم فى تريم فى عهد المنصور . قال وكان هذا العامل فاسقاً ظالماً . قال وانتقضت البلاد كلها على معن ابن زائدة والى المنصور على اليمن ، وفعل هذا المعن من الفظائع ماشوه به تاريخه وأبقى بعده أحدوثة سيئة ، وترك فى حضرموت ابنه والياً على

البلاد ، وهذا أظلم وأطغى ، ثم عاد إلى صنعاء قال ولم يفلت معن من نقمة الأباضية ، فقد تبعه رجلان منهم وهو فى طريقه راجعاً إلى سلطانه يريده لحرب خراسان ، فقتلاه فى الطريق حيث لم يظن أنهم يصلونه ، ثم غمض تاريخ البلاد بعد هذا الحادث .

قال فإننا نجد فى التاريخ أن الأباضية هم المسيطرون على شئون حضرموت عندما قدم المهاجر أحمد بن عيسى العلوى من البصرة فى أول دولة آل زياد أول القرن الرابع الهجرى ، وكان هذا قدم على اليمن والياً وهو من أهالى البصرة .

قال المصدر المذكور فقد ذكر أحد المؤرخين من الحضارم : أن الأباضيين تألبوا على المهاجر وحاولوا زحزحته من حضرموت ، وأن أهل السنة والشيعة بحضرموت حاولوا نصرته فاجتمعت كلمتهم عليه ، ولعل القصد لعداء الأباضية لأن أهل الجور والظلم لا ترضى الحق ، وإذا بالمهاجر هاجر من البصرة إلى حضرموت واليمن لقتل الأباضية ، وأن الإمدادات للمهاجر تأتى من البصرة من أمواله يجهزها له ولده ، للأباضية تأتى من عمان وغيرها والبصرة ذلك من أمواله ، إذ كان تاجراً وله أموال ، والأباضية تأتيهم معونات من أصحابهم من عمان وغيرها ، والملاقاة فى حضرموت واليمن .

قال فوقعت وقائع بين الطرفين هامة تشيب لها الأطفال ، وآخر وقعة وقعت بينهم ببحران من الهجرين انكسرت فيها شوكة الأباضية ، وانتقل المهاجر من المهجرين على أثر هذه الوقعة ، ونزل قادة بنى جشير خوفا من هجوم الأباضية عليه ، وهذه الحرب كلها أثارها الخلاف المذهبى ، لأن السياسة اقتضت هذا الحال ، فإن للعقيدة اتقاداً قد لا يطفأ لهبه بين الأباضية ، والمهاجر المذكور ، وإن الأباضية يقاتلون من أجل العقيدة فى أغلب

حروبهم ، ولذلك لم يستطع المهاجر أن يسكن المدن الكبرى فى حضرموت كشبام وتريم .

قال المصدر الرافع للقضايا : إن عواصم حضرموت كانت تزخر بعلماء الأباضية وذوى الرأى والقوة منهم ، فكان يختار القرى يمكن أن يجد له فيها أنصاراً من السنيين والشيعة . قلت إن هذه العبارة تدل بمنطوقها ومفهومها على قوة الأباضية فى حضرموت حسية ومعنوية ، فإن قوله : كانت تزخر بعلماء الأباضية وذوى الرأى والقوة منهم ، وهذا الناقل هو سنى المذهب ، لكنه جاء بالحق الواقع ، وكان الوالى المسمى المهاجر يخاف سطوة الأباضية وأنهم ولو هلكوا جميعاً لايبالون فى سبيل نصرة دينهم ، لاسيما الطبيعة اليمانية حارة فوق الحد ، والحق هو الذى يوقد نار الأباضية كما وصفهم أحمد أمين فى ضحى الإسلام . فكان المهاجر من الجبيل إلى دوعن(١) وإلى المجرين(٢) يتردد على هذه القرى .

قال ولما وجد الأباضية الفرصة سانحة للانتقاض والثورة فى عهد محمد بن يعفر الحوالى الذى كان فى وقته كذلك مستقل فى صنعاء فى سنة ٢٦٣ هجرية ، وإن كان يدين بالطاعة للمعتمد العباسى بن المتوكل ، وفى هذا التاريخ كان نفوذ آل زياد قد تقلص من صنعاء وما حوالها ، وانحصر فى تهامة ، فعمل اليعافرة لإخضاع ثورة الحضارم ، وأقاموا الهزبلى الحضرمى حاكم شبام نائباً ، قلت هذا الكلام المشروط بقوله : ولما وجد الأباضيون الفرصة سانحة للانتقاض والثورة فى عهد محمد بن يعفر الحوالى ، ولم يتبين ماذا فعل الأباضية لما وجدوا الفرصة سانحة إلخ . كأن التاريخ تلاشى والنسبة

---

(١) من بلاد حضرموت مشهورة .

(٢) المجرين كذلك من بلاد حضرموت . أ هـ .

غموض أعرب عن آل زياد الذين لم يسبق لهم ذكر فى هذا المقام ، وذكر تقلص ظلهم من صنعاء وما حواليها ، وانحصر فى تهامة ، وأشار إلى عمل اليعافرة لإخضاع ثورة الحضارم لم أدر هل المراد بهؤلاء الحضارم الأباضية أم غيرهم ؟

وسار المؤرخ المشار إليه فى غموضه حتى تبين له وميض يدل على عدم وجود المصدر الذى يأخذ عنه حيث قال : ونسأل المصادر التى بين أيدينا عمن كان يتزعم الحركة الأباضية ، ويتولى شئونها بعد قتل عبد الله ابن يحيى الكندى إلى أواخر القرن الرابع الهجرى ، فتعتصم بالصمت ، أى لا تجيب فإن التاريخ قد خانها .

قال كما أنها لم تشر من قريب ولا من بعيد إلى مراكز الثورة على الخلفاء والملوك اليمنين من اليعافرة وآل زياد ، وكيف كانت الحالة الثقافية والاجتماعية فى هذه الفترة ، لقد ضاعت إذن أو فقدت مصادر تاريخ هذه الفترة ، ولكن لماذا لا أرى ؟ غير أنى وجدت السيد علوى بن طاهر الحداد فى كتابه جنى الشماريخ يقول :

بسبب ذهاب تواريخ حضرموت القديمة وانطماسها أن الأخلاف رأوا فى سيرة الأسلاف ما ينكرونه منهم اليوم ، فعمدوا إلى إخفائها وإفنائها .

قال ثم لا يذكر السيد علوى عن هؤلاء الأخلاف المدهشين وماذا كانوا ينكرونه على الأسلاف . قلت الذى فى نفسى أنهم وجـــدوهم أباضية ، وقال لهم العدو هؤلاء خوارج ، وأنهم على غير حق لقصد

سياسى ، ولا أظن شيئاً غـير هذا ، وإن قال سعيد عوض باوزير وبصرف النظر عن صحة هذه الرواية أو عدم صحتها ، قلت بل صحتها عندى من باب الظن أن الناشئة لاتريد أن تكون خوارج ، والخوارج كفار وقد ملئت الكتب باسم الخوارج فكانوا لايطلقون على الأباضية إلاخوارج، وعميت الأعين والقلوب التى فى الصدور عن الخوارج ، فلم يصفوهم باسم الخوارج فى الكون إلا الأباضية .



الصراع بين الحق والباطل

ويقول القاضي اليماني عبد الله بن عبد الوهاب المجاهد الشماخي : بلغ النشاط الفارسي والشعوبي نهايته ضد العرب والإسلام أيام مروان بن محمد الأموي ، وقد كانت الدعاية القوية للدولة الأموية هم العشائر اليمنية ، ولذلك توجه الفارسيون والهاشميون معاً بدعاياتهم إلى فصل تلك العشائر اليمنية عن الأموية ، وساعدهم ضعف الخلفاء بعد هشام . قال ويأتي مروان بن محمد بكماله : قال واتسع الخرق على الراقع ، فإذا بالوضع يتزلزل وبالعقد ينحل فينفجر بثورة طالب الحق أيام مروان بن محمد ، اندلعت تلك الثورة عام ١٢٩ هـ من حضرموت ، فالتهمت اليمن والحجاز وتناولت الحرمين مكة والمدينة ، وأصبحت الجزيرة العربية مشمولة بنفوذ طالب الحق مما اهتز لها عرش مروان بدمشق هزة ثمل لها الفارسيون ، ورقص لها الهاشميون ، وذعر لها مروان بن محمد الخليفة مما حمله إلى المبادرة لإخماد ثورة طالب الحق من غير تفكير للعواقب ، فإذا بمروان يقذف معظم جيوشه وفيهم اليمانيون بقيادة عبد الملك بن عطية إلى ساحة المعركة التي كانت من أشد المعارك ضراوة وحرارة .

وقد تمكن عبدالملك بن عطة في التغلب على طالب الحق وأبي حمزة ، ومن تتبع الأباضية في حضرموت الذي أوسعها عسفاً وتخريباً مما أثار عليه فلول الأباضية ، فقد تعقبوه عند منقلبه من حضرموت إلى مكة فقتلوه مع من كان معه ، أي قتلوهم كلهم .

قال وبلغ مصرعه إلى أخيه عبد الرحمن بن زيد بن عطية وهو

بصنعاء ، فاستصرخ همدان وقبائل الشمال وأغاويهم بقيادة شعيب البارق الهمدانى على حضرموت ، فأسرف فيها قتلا ونهباً وتخريباً . قلت هذه كانت أعمالهم فهل وجدت أيها القارئ الكريم خربوا بلداً دخلوه أو مكاناً احتلوه طيلة خصامهم مع أى القبائل المعادية لهم ، قد لا تجد ذلك من أعمالهم حتى فى اليهود والنصارى . قال وقد كانت هذه الحرب المشئومة أعظم سبب لإضعاف العرب وانتهاء الدولة العربية الأموية ، فقد التهمت جيوش مروان المدربة ومعظم قواده ، كما طحنت فرسان اليمن ومغاويره ونشرت الخراب فى أنحاء الجزيرة العربية ، قال وقد استمر الأباضية فى سيطرتهم على حضرموت من بعد طالب الحق عدة قرون يناضلون الغزاة ، وظلت اليمن فى غليان ارتفعت درجة حرارته فى العهد العباسى ا هـ .

فأفاد هذا أن يد الأباضيين لم تزل من حديد ولم تزل الروح الأباضية خالدة فى أرجاء اليمن عدة قرون ، ولعل الفضل يعود إلى العالم العملاق أبو عبيدة إمام الأباضية فى البصرة رحمه الله ، فإنه كان الشمس المضيئة فى العالم الإسلامى . قال ولم يكن العهد العباسى أحسن حالا مما كان عليه العهد الأموى ، فقد كان مشئوماً على العروبة والإسلام معاً ، ونكبة عميقة المبضع على اليمن .

ففى عام ١٤٠ هجرية قدم اليمن بعهد المنصور الطاغية معن بن زائدة ونصب أحد قرابته نائبا عنه بحضرموت ، وكان هذا النائب حلس فسوق واستهتار وعنوان ظلم سافر ، فجاوز الحد ولم يسمع للحضرميين أى استغاثة فلم يبق إلا أن قتلوه بقيادة زعماء الأباضية . قال وانتقضت البلاد على معن فأقبل معن من شمال اليمن بجيوش ارتكبت من الفظائع

ما تشيب له الولدان، فقتل نحو خمسة عشر ألفاً من اليمانيين وسد عيون المياه بالرصاص ، وأجبر الناس على لبس السواد . قال ثم عاد إلى صنعاء مخلفاً وراءه المآسى ومستنيباً ابنه على حضرموت . قال ولكنه لم يفلت من نقمة الأباضية ، فقد تعقبه منهم رجلان وهو فى طريقه إلى خراسان فقتلاه أخذا منهما بثأر الأبرار حماة العدالة والدار ، فسماهم حماة العدالة والدار ، ولم يذكر عنهم فسقاً أو فساداً أو تخريباً رحمهم الله ، وأعلى مقامهم عنده هذا وسوف ترى عنهم فى هذا التاريخ ما تبتهج به سروراً ، ولم تجد لهم سوءة واحدة ، وهذا شأنهم ، ولو أراد الله لهذه البلاد خيراً لأبقى بها أمة الأباضية ، ولكن سنة الله في عباده أن من المحال دوام الحال ، وقد خلف الأباضية في هذه البلاد حسن الأحدوثة والذكر الحسن الجميل :

وإنما المرء حديثاً بعده فكن حديثاً حسناً لمن وعى

ذلك لأن الإيمان يدعو إلى طاعة الله لا إلى طاعة مروان كما قال أبو حمزة البطل رحمه الله ورضى عنه ، ولكل درجات مما عملوا والله يتولى من عباده الصالحين .

الحق حليف الأباضية

كل العداوة قد ترجى إزالتها   إلا عداوة من عاداك من حسد

والحمد لله لا يضر من سموهم خوارج إذ كانوا مع الله على حق ، وليس هذا بعجيب من قوم يقومون على إمام المسلمين يقاتلونه فيقتلون خيار المسلمين بغير ما ذنب يوازن جناح بعوضة ، ويقتلون عمار بن ياسر وأمثاله آلافا من المؤمنين ويشقون عصا المسلمين ، ويقال لأحدهم رضى الله عنه ويلعنون إمام المسلمين على رءوس الملأ بالقهر والأجرة ونحوها من سائر الأحوال ، والذى لا يعلن الإمام يطرد ويقال له رضى الله عنه ؛ ويقال للأباضية خوارج سبحان من وسع حلمه عباده .

قال المصدر الذى نعتمد عليه : قد مرت بحضرموت محن عصبية ونشبت فيها حروب وفتن كثيرة ، وتعرضت لنكبات من الداخل والخارج ، فلا يبعد أن تفقد كثير من المصادر التاريخية فى أثناء هذا العراك الدموى الذى أناخ بكلكله على حضرموت قرونا طويلة . وقال فى موضع ناء نقلا عن ابن شهاب إلا أن الأباضية كانت المذهب الغالب فى حضرموت فى القرن الرابع الهجرى ، وانظر كلام بعض أعداء الأباضية يقول :

ومن عجائب ما يراه الناظر فى تاريخ حضرموت أن الأباضية قد جلبوا على حضرموت من المصائب والبلايا والحروب والقتل ما يطول شرحه ، عهدتك تقول : إن الأباضية هم علماء حضرموت ، وهم أهلها من أول ما عرف الدين فما بالك تقول إنهم جلبوا لحضرموت من المصائب إلخ . ؟ ثم قال ولكنه لم يؤثر ذلك فى خراب حضرموت خرابا يماثل ما وقع فى الزمن الأخير ، فإنهم باحتلالهم حضرموت واستغوائهم أهلها ورميهم بهم فى

تلك النحلة قد جعلوا العالم الإسلامى إلباً ، جعل هذا الجبان الذى يفزع الحرب ولا يعرف معنى الجهاد ما هو ، وأظن أنه لم تحدثه نفسه به خلافا لأبى بكر وعمر رضى الله عنهما حين قالا والله لو لم نجد من يقاتلهم معنا إلا الذر لاستعنت به عليهم ، وما قاله أبو بكر فى حرب أهل الردة وماقاله عمر بن الخطاب لأبى سفيان إذ جاء يطلب تمديد هدنة الحديبية :

خلق الله للحروب رجالا
ورجالا لقصعة من ثريد

بل كل ما عند الفرق التى تتسم بالإسلام بغض الأباضية ، ولا بغض اليهود والنصارى ، ولكن كما يقول المثل حب الجبان الراحة ولو أصبح أمراه ، ولولا ذلك لما تمزق الإسلام خموراً وزموراً وخلاعة وإضاعة ، وأصبح معاهد للرقص والأغانى ، فأصبحت شهامة الرجال تطوى من قلوبهم وتوضع مكانها الأحوال التى حار بها القرآن ، وعلى كل حال لما كان الإسلام معروف الأصول معلوم القواعد مدروس المعارف ، كانت حضرموت وغالب اليمن أباضية ، ولما تصرمت تلك القرون التى شهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بأنها خير القرون ، وجاءت القرون التى شهد عليه الصلاة والسلام بشرها . خلت هذه الأماكن من الأباضية وحل محلها من أشار إليهم الإمام السالمى رحمه الله حيث قال :

كان لنـــا عصر العلوم مشرقا
وبأفوله بدا مـــــن فسقا

وسار هذا المؤرخ يقول : ونحن لا نعرف حتى الآن من هم زعماء الأباضية ورؤساءه السياسيون بعد عبد الله بن يحيى الذى سار سنة ١٢٩ هـ سوى الإمام أبو إسحاق إبراهيم بن قيس الهمدانى الذى ظهر أمره بحضرموت فى

أوائل القرن الخامس الهجرى ، وحارب القرامطة والصليحيين . قلت استرحت من نصب الأباضية ولو كانوا حاربوا القرامطة عن بلادك ، وحاربوا الصيلحيين وتلقوا بصدورهم رماح البغى وسهام العدو وسيوف الجيوش الغازية ، فبدل أن تشكروهم وتقدروا أعمالهم تنبزونهم بالإغواء ونحوه وتنسبون إليهم ماهم برآء لو لعنت الذين أخذوا من الأباضية دينهم من آبائك وقومك لكان أولى من إرسال سهام القدح فى أمة أثنى عليها وعلى علمائها ابن عباس أبو بكر وعمر رضى الله عنهم ، وجملة من أهل العلم .

قال ويبدو لنا أنه لولا تعرض كتاب التاريخ الإسلامى من غير الحضارم بعبد الله بن يحيى وإبراهيم بن قيس لم يصل إلينا الكثير من أخبارهما . قلت نعم هذا صحيح :

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا
ويأتيك بالأخبار من لم تزود

الجنود الظالمة

قال وواضح أن الأستاذ ابن شهاب يعنى بهجمات جنود الإسلام على على حضرموت الحملات التى أرسلها مروان بن محمد ، ثم والى المنصور العباسى على اليمن وغيرهما من ملوك آل زياد واليعافرة لإخضاع ثورات الأباضية المتعددة . قلت نعم ما كان بحضرموت مهم يخافه هؤلاء إلا الأباضية ، فإنهم ما يرضون ما يرضى به غيرهم ، ولا يقولون أيضاً مقال المرجئة الذين هدموا الدين من أصله ، ويتجلى ذلك فى المذهب الأشعرى الذى لا يرضى أطفال الأباضية أن يقولوا بمقالته .

قال وفى رسالة للسيد عبد الرحمن بن عبيد الله ما نصه: إن المهاجر ورد حضرموت وهى تغلى غليان المرجل بالأباضيين والخوارج والأمويين نسباً العباسيين دولة، فما زال هو وأولاده يقارعونهم بالحجج حتى أضرعوا خدود الأباضية وأخفتوا أصواتهم — قلت نعم إن المقصودين بالذات الأباضية لامن ذكر بعدهم ولاشك أن للسيف حكماً ليس(١) . . . . وإذا خفتت أصوات الأباضية حين يرون الأمة بقضها وقضيضها عليهم، وليست لهم قوة يدفعون بها عدوهم ، لاغرو إذا خضعوا يتحينون النصر من الله والدنيا صراع ، وحكم التقية نصه القرآن الكريم : (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها) .

قال وقد ذكرت فى البضائع أن مجاهرة الإمام بنسبة بين أولئك الطوائف أقوى دليل على شهامته وصحة نسبه وما مجاهرته بالمذهب إلا دون

---

(١) بياض فى الأصل .

مجاهرته بالنسب . قلت لاأعرف ما يريد بمجاهرة من سماه الإمام بنسبه ، أيريد أنه شيعى أم غيره ؟ وأن مجاهرته بنسبه لعله يعنى أنه علوى ، وإذا كان علوياً فهل الدين علوى ؟ إنما يقول الله لنبيه عليه الصلاة والسلام : (وأنذر عشيرتك الأقربين) ، فأنذرهم إنذاراً صريحاً علناً يسمعه كل أحد ، فما معنى مفاد النسب هنا ؟ ولما قال إبراهيم الخليل عليه السلام : (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك) (قال لاينال عهدى الظالمين) ولاشك أن أبا لهب أقرب لرسول الله نسباً من غيره ، إذ هو عم النبي عليه الصلاة والسلام فلم تنفعه قرابته شيئاً ، وأقرب منه عمه أبوطالب الذى حمى رسول الله صلى الله عيه وآله وسلم وناضل عنه ، وأقرب منه فاطمة الزهراء رضى الله عنها وفيها يقول رسول الله عليه الصلاة والسلام : « والله لو فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها » .

قال وجاء فى أوائل العقد لشيخنا الأستاذ الأبر عن مواضع من المشرع أن المهاجر أضعف شوكة الأباضية بما أورده عليهم من صحيح الاستدلال . قال ثم تلاه الإمام العالم سالم بن بصرى فأنزل البدعة إلى أسفل مرتبتها . قال عززهما الأستاذ الأعظم الفقيه المقدم انتهى .

قال ويذكر عبيد الله فى هذه الرسالة أن الأباضية بقيت على جانب من القوة إلى عهد الفقهيه المقدم المتوفى سنة ٦٥٣هـ ، قال وإن تأخر استيطان العلويين بمدائن حضرموت ، إنما كان بسبب اختلاف المذاهب ، وأنه مازالت المجاذبة بين العلويين وعلماء المدن الحضرمية الكبرى حتى كانت الغاية الكبرى الاتفاق على منتصف الطريق ، قال فإن الذين تديروا تريما من العلويين وافقوا المشايخ فى الأخذ بمذهب الشافعى وبعض الآراء الأشعرية ، وأكثر المشايخ بتريم وافقوا العلويين على القول بالقبطانية ، وهو المذهب الإمامى بنفسه . قال فإن لم يكن فإنه

إخوة فكل من الفريقين أخـذ وأعطى إما بقصد وإما بطبيعة الاختلاط والاحتكاك ، فلا غالب ولا مغلوب اهـ .

فانظروا عباد الله هذا التلاعب الذى وقع فى الله من هؤلاء الناس الذين جعلوا دينهم ألعوبة بينهم ، وهم يدعون الدعايات الخصيصة أنها من المصائب التى تؤسف رسول الله عليه الصلاة والسلام فى دينه ، قال هذا هو رأى ابن عبيد الله أوردته ليكون من بين العلامات التى تتعرف بها الرأى الصحيح والحقيقة الناصعة فى موضوعنا عن الأباضية . قلت وما للأباضية فى هذا وهم أعداء والكل عليهم ، ولعل القوم أرادوا بذلك الوفاق ليكونوا ضد الأباضية بذلك ، إن هذا الشمل المجتمع على هذا الرأى أنه من الآراء التى تعرف للشيخ النجـدى حمى الله منه الأباضية وصانهم :

قال صاحب معالم الجزيرة العربية : وفى أيام مروان ثار عبد الله ابن يحيى الكندى الحضرمى مطالبا بسقوط مروان المذكور سنة ١٢٩ هـ ، وأجلى عامل حضرموت بعد ما حبسه يوماً واحتل اليمن بأجمعه بعد قتال شديد ، وأنفذ جيشه إلى الحجاز واحتله ، هذا كلامه ولم يفصل شيئاً من الحوادث ، بل أجمل ذلك فى قوله : فاحتل اليمن كله بعد قتال شديد ولم يذكره فى أى موضع ولم يذكر القائد الذى قاتله وهو القاسم بن محمد، ثم اندفع إلى العهد العباسى ومن بعده ، فذكر الملوك والأمراء الذين سادوا اليمن إلى القرامطة ، ومن بعدهم ولم يذكر عن الأباضية شيئاً إلا ما كان من أمر حضرموت كما سوف تراه ، فإنه ذكر مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية :

قال فقد كان عامله فى صنعاء القاسم بن محمد ، وفى حضرموت

إبراهيم بن جبلة الكندى . قال : وفى أيام هذا ثار عبد الله بن يحيى الكندى زعيم الأباضية فى حضرموت ، وهذا يدل أن للأباضية زعامة فى حضرموت فى هذا التاريخ المبكر ، أى فى أول القرن الثانى .

قال وأجلى عامل مروان بحضرموت بعدما حبسه يوما واحدا ثم احتل اليمن بعد قتال شديد واحتل صنعاء ودخلها دخول الفاتحين . قال ثم سير عامله أبا حمزة المختار بجيشه إلى مكة ، ثم إلى المدينة فاستولى عليهما ، فأرسل مروان جيشاً عقد لواءه لعبد الملك بن عطية . قلت عبد الملك بن محمدبن عطية لكنه نسبه إلى جده ولم يذكر الحرب التى لاقاها المختار والتى خاضها عبد الملك المذكور ، فقاتل أبا حمزة فهزمه فى وادى القرى فالتجأ إلى مكة فجد فى أثره ومازال يقاتله حتى قبض عليه وقتله .

قال ثم سار ابن عطية لقتال عبد الله بن يحيى فظفر به بعد معارك شديدة ، وقتله واستولى على صنعاء ، ثم حضرموت فى حوادث يطول تفصيلها ، قلت ليتك فصلتها وأفدتنا عن تفصيلها ليعلم الأواخر أعمال الأوائل ، وهى أكبر فوائد التاريخ .

قال وطويت الصفحة لهذه الدولة الأموية بقتل مروان ، أى أن مروان سلط الله عليه من قتله ، كما أن الأباضية قتلت ابن عطية فى طريق مكة كما سوف تراه ، وتولت الأمر الدولة العباسية بأول ملك منها ، وهو أبو العباس السفاح القائم فى سنة ١٣٢ هـ (٧٥٤ م) وصار أمر حضرموت فى هذه الآونة إلى السفاح المذكور ، ولم نقف على سلسلة أعمال العباسيين فى هذه الناحية إلا ما كان من عمل المنصور أخ السفاح الذى ولى معن ابن زائدة الشيبانى على اليمن ، وهذا أرسل أخاه عاملا من قبله على حضرموت ، فأقام بتريم ؛

قال صاحب المعالم : وكان فاسقاً ظالماً سفاكاً فقتله أهل تريم وخلعت حضرموت كلها طاعة معن : قال فغزاهم وأثخن فيهم قتلا حتى بلغ عدد القتلى خمسة عشر ألفا . قال وسد العيون بالرصاص وأجبر الناس على لبس السواد الذى هو شعار العباسيين ، ثم عاد إلى صنعاء بعد هذه الأعمال الشنيعة ، وأبقى ابنه زائدة والياً على البلاد ، وهذه الأحوال ليست من أعمال المسلمين فما لعمال أهل بيت النبوة يفعلون ما لا يرضاه الله :

قال صاحب المعالم : ولما استدعى المنصور معناً لقتال الخوارج يعنى الأباضية فى خراسان ، فإنهم إذ ذاك هم الحجة فيها وما يقتضيه الدين لا يرضاه أباضى أبداً مهما كان ، واختار معناً لحربهم ليفعل فيهم مثل ما فعل فى حضرموت ، فتوجه مجيباً لسيده ، فلحقه الأباضية فى الطريق فقتلوه أخذاً بثأر من قتل من رجالهم ، وكان معن معروفاً بالحلم وصلاح النفس ، وهذه أعماله فى رضا سلطانه ، أما رضا الله عزوجل فغير مسئول عنه والنفس أمارة بالسوء أو الكبرياء الفاضحة تغلب على النفوس الخبيثة :

قال صاحب المعالم : وتعاقب ولاة بنى العباس على اليمن وحضرموت حتى انتهت الخلافة إلى المأمون ، وظهرت الشيعة دعاة العلويين وانتشرت الفتن وقامت الحروب عهد المأمون ، فولى المأمون محمد بن زياد على اليمن سنة ٢٠٣ هـ فأخضع اليمن جميعها لحكمه ، ودخلت فى طاعته حضرموت والشحر ، فكان أول من أسس الدولة الزيادة باليمن والمعنى استقل باليمن ومشت الدولة العباسية القهقرى حتى انتهت :

بدء انتشار المذهب الأباضى

قال صاحب نشأة حركة الأباضية ، وهو يذكر أبا عبيدة مسلم وقيامه بدعوة الأباضية وماله من اهتمام حد النشاط الحى ومالديه من عوامل رجالا ومالا وسياسة بالغة الأهمية يقول : بالإضافة إلى هذه فقد خلق أبو عبيدة من أتباعه مجتمعاً تسوده المودة والمحبة والإخاء فى العقيدة وتسيطر عليه روح الجماعة ، وكان يحثهم على التآلف والتعاون ، قلت التآلف والتعاون قوة رجحة وحجة ناجحة ، وبذلك يأمر الإسلام وإليه يدعو كل الأنام :

وتعاونوا على البر والتقوى ، وكونوا عباد الله إخوانا وعلى الخير أعواناً ، فإن أبا عبيدة من رجال الله الذين يهمهم أمر الأمة ولذلك كان يحث القوم على التآلف والتعاون فيما بينهم . قال كما طلب من الأغنياء أن يكونوا عوناً للفقراء وسنداً لهم حتى لايضطر الفقير من جماعته لاحتياج إلى أحد من المخالفين . قال وقد لبى الأثرياء منهم هذا الطلب بحماس منقطع النظير .

قال وتورد المصادر الأباضية أمثلة كثيرة تشير فيها إلى تنافس الأغنياء منهم فى سد حاجة الفقراء وأعطياتهم . قال يقول أبوسفيان يعنى محبوب ابن الرحيل رحمهما الله "مدللا" على ذلك : سمعت بعض مشايخ من أدركت يقولون إنا لنذكر إذا دخل شعبان إن كان الفقراء من المسلمين الأباضية لتأتيهم الأحمال بالسويق والتمر وما يصلحهم لشهر رمضان ولا يعلمون من بعث بها يأتى الرجل بالجمال حتى يقف به على باب الدار ، فيقول ادخل فيكتب فى خرقة كلوا وأطعموا . قال ويروى أن شخصاً من الأباضية يدعى ديال

ابن يزيد كان يستأجر الأكسية البرد الشديد بألف درهم أو أقل أو أكثر ، وليس عنده منها شيء ، وإنما يتكل على الله ثم على المسلمين الأباضية، ثم يفرقها بين الفقراء ويجمع ثمنها بعد ذلك من الأغنياء الأباضية وكرمائهم : قال وكان الداعية أبو الحر موسراً جداً وتأتيه غلته سنوياً فيقسمها نصفين ، فيفرق فى فقراء المسلمين الأباضية وفى معاونيهم ، ليس هذا فحسب، بل إن أغنياء كانوا يتسابقون فى دفع الديون المتبقية على من يموت من أصحابهم الأباضية :

يقول أبوسفيان : مات حاجب ، أى أبو مودود أحد علماء الأباضية ، وعليه دين مائتان وخمسون ألفاً أو أكثر دراهم ، لكنها فى ذلك الوقت عظيمة ، قال فدخل ابن عمر وجماعة من المسلمين الأباضية ليغسلوه ، فقال لهم قرة : ياقوم ما تقولون فى دين هذا الرجل؟ فابتدر ثلاثة رجال وقرة رابعهم وضمنوا دينه ، ودخل الفضل بن جندب ، وكان من خيار المسلمين الأباضية ، وكان موسراً ، فأخبروه فقال لهم الفضل : دينه على دونكم حتى أعجز عنه ولا يبقى لى مال . قلت هذا يدل على كرم نفوسهم وحس عواطفهم ورعاية واجبات إخوانهم رحمهم الله ، وبذلك تقوم قناة المسلمين ويلتئم شملهم ويهابهم عدوهم ، فلله أولئك الرجال رضى الله عنهم .

قال صاحب نشأة حركة الأباضية: ولم يغفل أبو عبيدة ومشايخ الأباضية فى البصرة عن أتباعهم فى الأمصار الأخرى وخاصة أنهم يحتاجون بشكل دائم إلى المساعدات المالية والمعنوية حتى يستطيعوا الصمود ، ولكى يستعدوا بشكل فعال للوقوف فى وجه أى خطر يتهددهم ، أضف إلى ذلك فإن جماعات الأباضية خارج البصرة كانت فى بعض الأحيان تواجه بعض المشاكل الطارئة ، ولابد لحل هذه المشاكل من الرجوع إلى أئمة البصر ومشايخها ،

ومن هنا فقد برزت الحاجة لإيجاد نوع من التنظيم يتولى الإشراف على كل هذه الأمور ويضمن للدعوة استمرارها وتطورها ، ويهيئ لها بالتالى سبيل النجاح والنصر .

قال : لتحقيق ذلك أنشأ أبو عبيده فى البصرة ما يمكن أن نسميه الثورية السرية ، وكان هو زعيمها ، أى كان أبو عبيدة هو الذى يدير الأمور إدارة تشبه أن تكون كما يقولون شبه رسمية ، ذلك لأن أبا عبيدة كان المطاع الوحيد طاعة تنبثق من صميم الإيمان ، لا من قوة الجند . قال وهوزعيمها أى أبو عبيدة رحمه الله هو زعيم الحركة ورأسها ، قال وله الكلمة العليا فى الشئون الدينية من فتوى وقضاء وتدريب الدعاة وحملة العلم الذين يرسلون إلى الأمصار .



أبوعبيدة ينشئ بيت مال

وأنشأ أبو عبيدة ، بيت مال خاص بجماعة المسلمين الأباضية فى البصرة ، ووكل إلى حاجب الطائى أى ابن مودود مهمة الإشراف على الشئون الماليه والعسكرية وشئون الدعوة .

قال : وقد كان أبو عبيدة فى الربط بين الناحيتين المالية والعسكرية ووضعها فى يد رجل واحد قدير ، وذلك لأن موارد بيت المال كانت تستخدم لمساعدة الدعاة والثوار الأباضية فى المناطق البعيدة ، قال : وكانت موارد بيت المال تأتى من مصدرين : الأول عبارة عن ضريبة فرضها الإمام على أتباعه فى البصرة ولا تذكر المصادر متى كانت تدفع ولا مقدارها ، ولكن من الثابت أنها لم تكن تفرض بالتساوى ، بل تتفاوت بحسب ثراء المكلف ودخله . قلت : هذا من الحق الذى تحمد عقباه وتتفاوت فيه الرجال ، فإن الله لم يجعل الناس فى الغنى والفقر سواء .

قال ولا تذكر المصادر أن أحدا من الأباضية تخلف عن دفعها . قلت وهذا من يمن طالعهم وما كان إخراجه لله فإنه يهون على أهل الإيمان به : قال : لأنها تعتبر فى نظرهم جزءاً من واجبات دينهم التى ستساعد على انتصار دعوتهم التى تمثل فى اعتقادهم الإسلام الحق كما كان موجوداً فى زمن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، وفى عهد الخليفتين أبى بكر وعمر بن الخطاب رضى الله عنهما . قال : ويبدو أن هذه الضريبة كانت تجمع عند الحاجة .

يقول : أبو سفيان محبوب بن الرحيل رحمه الله : وهو عند الإطلاق فى

نظر المشارقة لما خرج الإمام عبد الله بن يحيى طالب الحق ووجه أباحمزة المختار بن عوف لقتال الأمويين قام حاجب فجمع له أموالا كثيرة ليعينه بها ، فكتب على كل موسر قدر ما يرى ، فما امتنع عليه أحد هكذا ينقل هذا عن الشيخ الدرجيني .

قال : أما المورد الثانى أى من موارد بيت المال فكان يأتى من التبرعات السخية التى يدفعها أثرياء الأباضية ، قال : ويبدو أن التجار منها كانوا يتحملون النصيب الأكبر فى هذا الشأن فيرحم الله أولئك الرجال الأبرار الذين يجعلون بيت مال من أموالهم لنصر الحق وإقامة أعمدة العدالة ، إذ لم يكن لهم بيت مال بالمعنى المعروف ، إذ لم يكن لهم سلطان يستغلون به المشروع فى الدين ، ولكن كانوا يجمعون من أموالهم ما يتطلبه الحال وما يلزم لهذه الأمور ، وهذا دليل واضح على رغبتهم فى الحق وتفانيهم فيه ، فإن غيرهم يعطون الأموال الطائلة على القيام وهم فى كبد غالب ونكد جامد على عدم الرغبة .

ولما كان الأباضية فى ذلك العهد كذلك أيدهم الله وأعانهم ونصرهم ، فأقاموا الدول ورفعوا منار العدل ونشروا الإسلام فى عدة أصقاع هامة ، قال هذا الصقر الجاد الدكتورعوض الذى أفادنا عن القوم المعلومات الحلية وجاء بالأنوار الأباضية يضىء بها كتابه ، قال الدكتور : ومعروف أن عددا من التجار الأباضية كانوا من الأغنياء المعدودين ، وكانت تجارتهم تتجاوز البصرة وما جاورها ، وتصل إلى الصين والشرق الأقصى .

قال : ومن هؤلاء التجار نذكر على سبيل المثال النظر بن ميمون وأبو عبيدة بن القاسم أى المعروف بأبى عبيدة الصغير والفضل بن جندب

وغيرهم من خيار المسلمين الأباضية رحمهم الله ورضى عنهم : قال : ولم تقتصر هذه التبرعات على الأغنياء من الأباضية بل تعدتهم إلى بقية الناس من أهل الدعوة رجالا ونساء . قال : وتخبرنا الروايات أن حاجباً دعا أحد أصحابه ويسمى أبو طاهر وطلب منه أن يجمع الصدقات من النساء وأواسط الناس ، لأنه لا يريد أن يكتب عليهم ضريبة :

قال : فانطلق أبو طاهر فيمن انطلق معه من المسلمين فلم يأتوا يومئذ امرأة ولا رجلا إلا وجدوه مسرعاً فيما سألوه ، والمعنى أنهم يبذلون له المال عن رغبة ناشطة من غير تبرم أو تضجر ، قال وكان رجل من المسلمين لم يكن يرى أنه صاحب مال فدفع إليهم ثلاثة آلاف درهم ، فلم تمس الليلة حتى جمع أبو طاهر عشرة آلاف درهم ، قال ونتيجة لهذا التنظيم وتتويجاً لنشاط حملة العلم المتحمسين فى الأمصار ، فقد شهدت الدعوة الأباضية فى النصف الأول من القرن الثانى الهجرى بعض الانتصارات ، وأسست إمامات خاصة بها ، والمعنى أن الأباضية أقاموا فى هذا التاريخ إمامات لا إمامة واحدة خاصة بها فى جنوب الجزيرة العربية وشمال أفريقيا.

وقال : ويبدو أن أئمة الأباضية قد استغلوا الظروف التى تمر بها الدولة الإسلامية إبان حكم مروان الثانى آخر خلفاء بنى أمية ، وأوعزوا إلى أتباعهم فى تلك الفترة فى الأمصار لإعلان الثورة ضد الحكم القائم ، فقد مرت الدولة الأموية فى تلك الفترة بمرحلة عصيبة وشغلت بقمع ثورات مختلفة فى أنحاء متعددة من الدولة ومن ضمنها بلاد الشام التى كانت قبل ذلك تكوّن العمود الفقرى للسلطة الأموية . قلت : إذا انحرفت الأمة عن نهج الحق واستمرت على انحرافها حرك الله عليها من يثير فى بيئتها هواجس

تقلقل وعى المسئول وتبلبل أفكاره ، فإما أن يتراجع ويستقيم وإما أن يستمر على هواه فتنهار صروحه ويتزعزع عرشه فتقضى عليه الحوادث ، وهذا أمر معروف مستفيض فى الأمة شبه مجرب عبَّر عنه التاريخ فى جميع الأجيال كيف كانت ، بل هو مشاهد يعرفه الإنسان فيما بينه وخاصته ، ثم يقوم له شيوع محسوس حتى يسرى إلى حد بعيد ويشير إلى ذلك قوله عز وجل : (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) ، والله أكرم من أن يسلط على أهل الحق أعداءه إلا ريثما يتمحص الحق ويتحقق الأمر .

قال المؤرخ الذى نأخذ عنه النقل هنا لإنصافه غالباً فى نقله : والحق يقال وقد ساعد انقسام البيت الأموى على نفسه فى قيام مثل هذه الحركات ، وشجع أحزاب المعارضة . قلت : إن البيت الأموى من أول الأمر وضع حجر الانهيار حين قام على علىّ بن أبى طالب الإمام المحقق ، ولكن الله يمهل ولا يهمل حتى تقوم الحجة وتتضح المحجة وتشهد الحواس على أفعال الناس ، ثم أطال الكاتب المؤرخ .

ثم قال وأعلن العباسيون ثورتهم فى المشرق واضطر الخليفة لتوجيه قواته للوقوف فى وجه هذا الخطر الرامى لتقويض حكم الأسرة الأموية ، قلت : بسبب انحراف هؤلاء عن نهج الحق وتغلبهم على الأمة بغير ما أمر الله تحرك الدم الهاشمى الذى هو شقيق الدم الأموى .

قال وكان من بين هذه المناطق حضرموت واليمن حيث كان الدعاة الأباضية يقومون بنشاط واسع هناك منذ وقت مبكر ، وهذا يدل أن الأباضية سبق أن تحركوا للقيام قبل قيام الهاشميين ، فكانوا يتهيأون لمصادمة الفساد الذى يرونه ضرب بجرانه فى بلاد الإسلام . قال وقد ساعد تذمر السكان

فى تلك المنطقة متى سياسة الولاة هناك على انتشار الدعوة الأباضية بشكل واسع وسريع ،والمعنى أن السكان والولاة تعاونوا على تأييد ثورة الأباضية بأسرع مايمكن ، وعلى قوة واسعة وقد خضعت اليمن وحضرموت لحكم قيسى مستمر منذ أيام عبد الملك بن مروان ، وكان والى اليمن عند قيام ثورة الأباضية هناك هو القاسم بن عمر الثقفى .

قال وقد اتبع الولاة الثقفيون سياسة مالية جائرة ضد السكان اليمنيين وأثقلوا كواهلهم بالضرائب الإضافية ، أى أنهم وضعوا على الأمة الضرائب المالية التى لم تكن من الحق فى شىء ، وهذا شأنهم .

وأنا أقول لك أيها القارئ الكريم هذه أعمال هؤلاء التى يذكرها التاريخ فاحتفظ بها مع أخواتها وحاسب بها التاريخ الأباضى ، وانظر الحال الفارق بين الفئتين وأعط كل أمة حقها إنصافاً ، ثم كن مع المحق منهما وإلا فقد قامت عليك حجة الله والحق غير متروك أمام الباطل ، فإن الله هو الحق ، وما كان من الحق فالله يرعاه فى كل جيل ، قال وقد ألغى عمر بن عبد العزيز هذه الضرائب الإضافية ، قلت لأن عمر (١) كان أباضياً باتفاق علماء الأباضية ، وإن كان أمويا وكذلك ابنه عبد الملك وتاريخهما غير خاف وأباضيتهما غير مستورة ، وإن كان عمر حاول أن يعمل بالسياسة ، قال ولم يلبث أن أعيد فرضها بعد وفاته ، قلت وهذا مصداق لما قلنا عن الأباضية وأعمالهم .

ثم راح المؤرخ المذكور يرسم مراسم الخوارج على الدولة الأموية

---

(١) قوله لأن عمر كان أباضيا : معناه كان موافقا لمبادئ الأباضية وأصولهم ويرى رأيهم اهـ .

المشار إليها إلى أن قال : ... اختار الأباضية الشراء على القعود ، أى لم يروا السكوت عن أداء الواجب ، إذ تداس أحكام الله عز وجل .

قال وجدير بالذكر أن الأباضية فى مرحلة الكتمان كانوا يجيزون الشراء إذا اتفقت طائفة منهم ، لايقل عددها عن أربعين رجلا على إعلان الثورة شريطة ان يختاروا لأنفسهم إماما من بينهم يدعى إمام الشراء ، يقودهم فى عصيان مسلح ضد الباظل ، أى يحملون السلاح على الباطل بقيادة إمامهم المشار إليه ، قال كما فعل مرداس بن أدية وأصحابه الذين ثاروا على الشراء فى عام واحد وستين هجرية وقتلوا جميعا رحمهم الله وفازوا بالشهادة مع الله عز وجل ، وهى إحدى الحسنيين التى ينشدونها ، وبقيت الأحدوثة الحسنة بعدهم تضرب بها الأمثال .

قال الدكتور المذكور الذى نأخذ عنه نقل هذه الحوادث ،وقد كفانا فيها ذكر مصادرها فلا نطيل بها المقال فى ظل هذه الظروف : كان الدعاة الأباضية يجوبون المنطقة يدعون إلى مذهبهم ويؤلبون السكان ضد الحكم الأموى ، قال وتولى الدعوة فى حضرموت واليمن بعض الأشخاص المشهورين بالعلم من أهل البلاد الذين يتمتعون بالعصبية القوية والكلمة النافذة، وعلى رأسهم عبد الله بن يحيى المشهور بطالب الحق والذى ينتمى إلى قبيلة كندة الحضرمية القوية ووائل الحضرمى وهو من مشاهير علماء البارزين .

ومن تلاميذ أبى عبيدة النجبا قلت وكيف لايكون كذلك وأبو عبيدة البطل رأس الكل ، وهو الذى يمثل الدين ويصنعهم لله وفى الله ، وأنت خبير أن التلميذ يأخذ أخلاق شيخه مهما كانت ، وهذا الشيخ هو السند الصحيح ، وهو البطل المخلص لله على الوتيرة التى تعرف لأمير المؤمنين

عمر بن الخطاب رضوان الله عليه ، وكيف لايكون طالب الحق ووائل الحضرمى وأبو مودود وإخوانهم كذلك وهم ثمر السيد العامل لله المخلص له فى السر والعلانية أبى عبيدة الضرير رحمه الله .

قال الدكتور المذكور الذى نأخذ عنه بالحرف الواحد: ولا تسعفنا المصادر المتوافرة فى تحديد الوقت الذى وصلت إليه الدعوة الأباضية إلى تلك المناطق ، قال ومن المحتمل أنها تسربت إلى تلك البقعة فى وقت مبكر .

والمعنى أنها جاءت فى أول الوقت ، ولايخفى أن مدرسة أبى الشعثاء وأبى عبيدة أنتجت إنتاجا عاليا سريعا جداً فى طلب الحق ، وفى نشره وفى نفخ روح الإيمان والعدالة فى قلوب المسلمين ، فإن قلوبهم صالحة لغراس الإيمان ونشر دعوته وبث ما يدعو إليه ، فإن العهد جديد وللحق ذوق يروق فى نهى أهل الإيمان ورجال الأباضية الوراثة فى الإمامة جارت أم عدلت ، بل يرون الحق من أين جاء وممن جاء به والحق أحق أن يتبع .

قال شيخنا الدكتور : وخاصة أن أئمة الأباضية فى البصرة قد أعاروا المناطق النائية الواقعة على أطراف الإمبراطورية الإسلامية عناية خاصة ، والمعنى أن رجال الأباضية يرون الدولة التى يقدسها هؤلاء باسم الدولة الأموية دولة جائرة حائدة عن الحق هم منها فى تألم زائد ؛ وفى بغض متزايد بحيث حادوا بنهج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن الصراط السوى إلى المنهج الذى هم عليه من البطر بالنعمة والجور على الأمة والحياد عن مقتضى القرآن ، فهم يتألمون من هؤلاء أكثر من تألمهم من المشركين ، ذلك لأن المشركين لم يغيروا من أمر الدين الإسلامى لأنهم كانوا من أول أمرهم على الشرك ، أما الذين أسلموا والذين هم أبناء الإسلام يرجوهم الإسلام ليرفعوا شعاره ويعلوا مناره ويؤيدوا قضاياه ، كما أمكنهم وبكل مالديهم وما أوتوا من قوة ، فلذلك تراهم يبذلون النفس والنفيس فى إقامة شعاره .

طالب الحق يتزعم الدعوة فى حضرموت

كن طالب الحق رحمه الله ورضى عنه كما هو زعيم قوم أضاف إلى زعامته تزعمه دعوة الأباضية فى حضرموت ، إذ كان له من قومه سد يحيط به وسند يعتمد عليه ومؤيدون له على الحق ، وكان نور الإيمان قد أخذ منه مأخذه وضياء الحق أشرف على ذاكرته :

وإذا حلت الهداية قلبا

نشطت فى العبادة الأعضاء

كانت كندة لطالب الحق يدا ولسانا وسيفا وسناناً ، ولذلك أصبح السيد الوحيد تؤيده الأباضية بكل معانى التأييد ، وكذلك أصبحت للدعوة الأباضية فى تلك المنطقة صولة وطولة ، وأضف إلى ذلك ما يشكوه الأهالى من جور العمال الذين تسلطوا عليهم ، إذ كانوا يظلمون الناس ، ولهذا نقول إن داعية الظلم أكبر مثير للأمة إلى مناصرة المعادى ، لأن الظلم لاتقبله النفوس ما وجدت لها منقذاً منه ، ولما كان الأهالى يتبرمون ويتألمون من ولاتهم كان ذلك الحال معيناً للأباضية على قهر الأيدى الأثيمة التى لاترى لها رادعا ولازاجرا .

والأباضيون بطبيعة الحال لا يرضون بظلم أحد مهما كان ، فأعانت الأباضية القوى الآهلة البلاد من سنين وشيعة ، إذ كانت رغبتهم فى التخلص من ظلم أولئك المشار إليهم وكانوا قبضوا على نواصى الأمة بيد من حديد غير مبالين بأحد .

شروط الإمامة عند الأباضية

لايخفى أن الأباضية لم يكونوا ليعينوا أحداً للإمامة بغير نظر المشايخ رجال العمل وأعمدة الدين ، وفقهاء الأمة الأباضية فى البصرة الوطن الأصلى للمذهب ، فإذا أراد الأباضية تعيين إمام أو رئيس أو زعيم محصوه ودققوا النظر فيه وتحققوا كل ما لديه من الخصال الحميدة ، والمراضى الشرعية ، وتدريب دقيق واستكشاف بالغ الأهمية حتى إذا لم يروا ما يرتابون منه ، ولم يجدوا فيه هوادة فى دين الله ، ولم يعلموا فيه شيئاً يعاب به ، فعند ذلك يبايعونه على طاعة الله وطاعة رسوله ، وعلى العمل بالكتاب والسنة واتباع آثار المسلمين ، وله اختيار الرجال على الأعمال سواء كان إمام دفاع أو إماماً شارياً اعتماداً على النصوص الواردة فى القرآن .

ولا يقبلون الذى يقول للقرآن بعد ما يرمى به هذا فراق بينى وبينك ، ولما بايعوا عبد الله بن يحيى طالب الحق ، فمن قائل إنه كتب للإمام أبى عبيدة أن يمده بأبى حمزة المختار بن عوف رحمه الله ، ومن قائل إن أبا عبيدة كان هيأ المختار عوناً لطالب الحق عندما تحقق إمامته فجاءه المختار وأنعم بالمختار الذى يعطى اسمه عنوان الاختيار ، فهو المختار حساً وعقلاً ولله دره من بطل ، وأين أمثال أبى حمزة فى الأمة الإسلامية كلها دين وإيمان وجهاد وإخلاص ، وقيام بواجب الحق واجتهاد فيه .

أبو عبيدة يرسل أبا حمزة مدداً لطالب الحق

كان الأمر تقرر فى وقت مبكر أن طالب الحق إذا تحققت إمامته فالأباضية يمدونه من البصرة بالمال والرجال ليؤيد بهم دعوته ويقوّم بهم دولته ، ولما صحت إمامته ثار السيد الهمام أبو عبيدة الذى أخذ العلم للعمل واجتهد فى مصالح الأمة لله عز وجل . قال الدكتور : إن المصادر الأباضية وبعض المصادر الأخرى تجمع على أن المختار بن عوف الأزدي ومن قدم معه من إباضية البصرة قد أرسلوا إلى حضرموت من قبل أبي عبيدة لمساعدة طالب الحق الذى كان إذ ذاك أباضياً، ويدعو للمذهب فى حضرموت قبل وصول أبي حمزة ومن معه من الرجال المحملين بالسلاح والمال، ولم يصل أبو حمزة حضرموت إلا بعد أن أشار طالب الحق على أبي عبيدة بأن الوقت قد حان لإعلان الثورة ، فسمح له أبو عبيدة بذلك ، ثم أرسل إليه المعونة البشرية والمادية ، يعنى الرجال والمال من البصرة ، لأن البصرة إذ ذاك تموج بنشاط الأباضية وعلى رأس الرجال أبو حمزة الشارى .

هكذا ذكر الشيخ الدرجيني والمشايخ الأزكوى والبلاذرى فى الأنساب فى الجزء الثانى صحيفة ٣٧٣ .

قال الدكتور : لقد جرت عادة الأباضية منذ وقت مبكر أن لايبايعوا لأحد بالإمامة إلا إذا أشار عليهم بذلك رؤساؤهم فى البصرة ، قلت ذلك لأن الإمامة قضية علمية يراد منها أن تُخلِف رسول الله فى أمته ، وأن تعمل بأحكام شريعته ، وهذه هى شئون أهل العلم فتكون الإمامة فى الأمة كون أبي بكر وعمر رضى الله عنهما لا كون معاوية ويزيد، وهذه هى ميزة الأباضية بين أمم الإسلام والحمد لله، قال أو بموافقة صتة من أهل العلم من خصوص

علماء الأباضية المعروفين بالعلم الغزير والفهم الكبير ، تقليداً لما فعله عمر ابن الخطاب عندما عيّن ستة من كبار الصحابة لاختيار واحد منهم ، أى أن عمر عهد بأمر الإمامة إلى ستة رجال من أجلة الرجال الذين رجا فيهم القيام بواجب الأمة على أن يبايعوا واحداً منهم ، ونعم الرأى ونعم النظر ونعم الاختيار ، فإن عمر رحمة الله عليه أكبر حجة فى الدين ، وأبصر بأمور المسلمين .

وهذا أيضاً من مزايا الأباضية حيث يأخذون فى الإمامة برأى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، فلله القوم ولله مأخذهم حيث صار قدوتهم فيه ثانى الخليفتين المرضيين ، ولم يأخذوا برأى أهل الأهواء ، ولم يرضوا فى دينهم إلا بمراضى ابن الخطاب وزير رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ووزير الخليفة الأول أبى بكر والذى ارتضته الأمة للخلافة ، فكان المثال الذى أعجز من جاء بعده من أئمة المسلمين ومشورة من هم حجة واجبة فى مثل هذا العمل الهام .

طالب الحق يدعو الناس لاتباع الحق قبل إمامته

كان طالب الحق(١) أباضيا خالصاً علماً وعملا ، وكان قبل إعلان إمامته يدعو إلى المذهب الأباضى ، إذ عرف نزاهته وعرف مقاصده وما يميل إليه ، وأن لاحياة للحق إلا معه ، ولا دافع للظلم إلا هو ، فإن الأمة التى ترضى أن يحكمها الظلمة لاترى خيراً ولاتسعى فى خير ولا تدعو إلى خير ولا يكون لقيامها فى الأمة خير ، ولذلك كان الأباضية الدعاة إلى الخير والرعاة للخير فى الوقت الذى أشار إليه رسول الله عليه الصلاة والسلام ، بأنه من عهود الخير إذ قال : « خير القرون قرنى ثم الذى يليه » الحديث ومفهومه أن العهود التى تأتى بعده أى بعد القرن الثالث لاخير فيها ، ولذلك تقلص المذهب الأباضى فيها ولله الأمر من قبل ومن بعد والخير فيما يختاره الله تبارك وتعالى .

وكان طالب الحق لما أراد الرجوع إلى وطنه زوده الإمام

---

(١) قوله : كان طالب الحق أباضيا . معناه أن طالب الحق رأى فى اليمن الظلم والفساد وترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وكان رحمه الله هاجر فى طلب العلم من أبى عبيدة وجمعته الأيام بأهل الفضل والعلم والعمل من خيار أمة الإجابة كأبى الشعثاء والربيع وضمام وتلمذ للسيد أبى عبيد خمس سنين ، ولما خرج إلى وطنه ومعه جلندى بن مسعود رحمهما الله رأى الحال فى اليمن على أشده فشاور إخوانه وراسل شخصه الضرير فأمره بالقيام على الباطل أهـ .

أبو عبيدة بأوامره فعمل بها وقام بواجبها حتى قامت إمامته تدفع عقيرة الإيمان وتزيل البغى والطغيان ، وتقوم بأوامر سيد ولد عدنان صلى الله عليه وآله وسلم . قال مؤرخو قضايا القوم لقد جرت عادة الأباضية منذ وقت مبكر أن لا يبايعوا لأحد بالإمامة إلا إذا أشار عليهم بذلك رؤساؤهم فى البصرة أو بموافقة ستة من علماء الأباضية المعروفين كما تقدم الحديث عنهم .

الوقت المناسب للثورة

لايخفى أن الأمور لها أوقات تكون سبباً مناسبا لإقامتها ، وعندما تدق الساعة المناسبة لا ينبغى أن تضاع تلك الفرصة ، فإن الأمور مرتهنة بأوقاتها .

قال صاحبنا الذى نأخذ عنه نقل هذه القضايا : كما أنه اجتهد فى إخراجها من مظانها الخصيصة بها يبدو أن إمامة طالب الحق جاء فى الوقت المناسب ، والدولة الأموية ، كانت فى طريق انهيارها فى أواخر العقد الثالث من القرن الثانى الهجرى ، ولذا فإن أبا عبيدة قد أمر صاحبه فى حضرموت بالتحرك فى أسرع وقت ممكن ، وكتب إليه يقول إن استطعت أن لاتقيم يوماً واحداً فافعل ، فإن المبادرة بالعمل الصالح أفضل ، قلت نعم يشهد لذلك فعل أبى بكر وعمر يوم السقيفة ، ولو تأخرا لوقع فى المسلمين التلاشى والاضطراب ، ولما حزما الأمر وربطاه أمنا شر الشقاق والخلاف ، وتعجيل ما يخشى انهياره أولى ، فإن تداعى البناء صعب إيقافه إلا ما شاء الله .

ولذلك يقول أبو عبيدة رضى الله عنه لطالب الحق فى كتابه : وإنك لاتدرى متى يبلغ أجلك ولله خيرة فى عباده يبعثهم إذ شاء لنصر دينه ، ويخصهم بالشهادة إكراماً لهم ، هكذا جاء عدة مصادر ، ونعم ما أوصى به أبو عبيدة رضى الله عنه ونعم ما دعا إليه ، فإنه لم يدع إلى ما دعا إليه معاوية ولده يزيد إذ قال له من قال (بوجه كذا فقل له بسيفك كذا ، أى اقطع رأسه والحمد لله الذى جعل العلماء هداة الأمة ونصحاءها .

وصية أبي عبيدة رحمه الله

لاشك أن أهل الحق وأهل الإيمان هم الدعاة إلى الخير وهم المرشدون للأمة وهم نصحاؤها ، ولما تحقق الإمام أبو عبيدة أن طالب الحق لابد قائم إلى ما دعاه إليه المسلمون ولا سيما إذ شجعه أبو عبيدة وحرضه، وأرسل إليه المدد أوصاه كما هي عادة أهل الإيمان .

يقول الدكتور : وأوصاه أيضاً بالسيرة الحسنة والسلوك الطيب ، وقال إذا خرجتم فلا تغلوا ، أى إن الغلول عار وشنار يوم القيامة يقول الله عز وجل : (ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة) ، قال ولاتعتدوا أى إن الاعتداء على عباد الله حرام بنص القرآن إذ يقول : ولا تعتدوا ، وتعاونوا ، فنهى عن الاعتداء وأمر بالتعاون ، قال واقتدوا بأسلافكم الصالحين .

ولا شك أن الاقتداء بالسلف الصالح من دواعي النصر ، ومن اقتدى بالسلف الصالح إذا لم يرزق النصر رزق الشهادة التي هي أعظم من النصر ، فإن الجهاد في الأصل شرع لدخول الجنة ومن دخلها شهيداً كان من علية الداخلين ، بخلاف من دخلها ببقية الأعمال فإن الأنبياء(١) . . . . . . الشهداء يوم القيامة ويودون شهداء بل يودون لو يقتلون عدة مرات فيحيون ، ويقتلون لما يرون من منازل الشهداء في الجنة ، ولما وصاهم أبو عبيدة رحمه الله تعالى باتباع سنة أسلافهم ، قال ، واستنوا بسنتهم ، أى اسلكوا طريقتهم ، قال فقد علمتم إنما أخرجهم على السلاطين العيب لأعمالهم هكذا في نقل البلاذري في أنسابه والشيخ أحمد بن عبد الله الرقيشي في مصباح الظلام ، وكذا قال

---

(١) بياض في الأصل .

أبو الفرج الأصبهانى . قلت :وإذا كانوا خرجوا على السلاطين لجورهم فالجارم هم السلاطين لا الذين أنكروا عليهم جورهم وظلمهم لعباد الله ، فإن الجور على عباد الله يسخط الله منه ، وكذا أيضاً فى نقل الشيخ سرحان الأزكوى ، ولله قوم يشهد لهم مثل هؤلاء العلماء فى مثل هذه الأعمال العالية .

قال ثم بعث أبو عبيدة ومشايخ الأباضية فى البصرة بالمال والسلاح معونة لطالب الحق رحمه الله ، كما سار إليه بعض أباضية البصرة لمساعدته ، وعلى رأسهم أبو حمزة الشارى المختار بن عوف الأزدى ، وبلج بن عقبة الأزدى أيضاً وغيرهم .

قال ولا تشير المصادر إلى عدد الأباضية الذين قدموا من البصرة لمساعدة طالب الحق، ويبدو من الروايات أن عددهم لم يكن قليلا، قال أما المدائنى فيذكر أن المختار بن عوف وبلج بن عقبة قدموا لمساعدة إخوانهم فى رجال من الأباضية لنصرة إخوانهم فى العقيدة، أىالذين يعتقدون معتقد الأباضية، قال أما رواية الأزدى فتعتبر أكثر وضوحاً فى إشارتها إلى كثرة عدد الأباضية القادمين من البصرة ، قال وقد بالغ خليفة بن خياط عندما أورد رواية ذكر فيها أن عامة جيش طالب الحق كان من أهل البصرة .

قال : وأيا كان الصحيح فى هذه الروايات فإنها كلها تؤكد على أن مجموعة من أباضية البصرة يقودهم أبو حمزة المختار بن عوف الأزدى قد هبوا لمساعدة إخوانهم فى حضرموت .

إمامة طالب الحق والاستيلاء على حضرموت

لما قر أمر إمامة طالب الحق ورأى الفرصة مواتية له بدأ بثورته على حضرموت فى عام ١٢٩ مائة وتسعة وعشرين هـ الموافق ٧٤٦ م للاستيلاء عليها كمقدمة لفتح القطر اليمنى ، وقد عرفت حضرموت ومحلها من القطر اليمنى ، ولم يقاومه أحد فيها ، ذلك لأن الأهالى كلهم يؤيدون عبد الله ابن يحيى ومايذهب إليه من الحق ، فإن الحق محبوب مطلوب مرغوب فيه بطبيعة الحال ، وقبض على واليها إبراهيم بن جبلة مخرمة الكندى ، وزج به فى السجن مدة يسيرة ، ثم أطلق حيث رآه لاتابع له ولا محذور منه ، وما كان سجنه إلا تأديباً من معاملته السيئة لأهالى حضرموت ، وكونه عوناً لأهل الضلال ، ومن أعوان الظلمة .

قال الدكتور : ولم يلبث إلا أن أطلق سراحه ولحق بسيده القاسم بن عمر الثقفى فى صنعاء ؛ قال ويبدو أن الأباضية أطلقوا سراحه ليظهروا للناس مدى تسامحهم وعدم تعطشهم لسفك الدماء وتعذيب الناس ، قلت هذا هو الصحيح وهذا طبع الأباضية، وهذه سيرتهم التى يعولون عليها إذ هم رحمة الله للناس ، كما كان رسول الله عليه الصلاة والسلام رحمة للناس ، فإن لهم فى رسول الله أسوة حسنة ، قال والأهم من ذلك أن الأباضية أرادوا كسب ود قبيلة كندة التى ينتمى إليها الوالى المذكور ، قال وكان معظم أنصار طالب الحق فى البداية من بين رجال هذه القبيلة الحضرمية بعد الاستيلاء على حضرموت وطرد واليها ، قام الأباضية بدعاية نشطة لحركتهم بين القبائل العربية . قلت كل هذا الذى يشير إليه من المحتمل أيضاً ،

ومن واجب أولى الأمر حيث لاتضر بالدين ولاتهضم جانب المسلمين ولا تتعدى الحق ، أما إذا كانت على خلاف ذلك فالأباضية أبعد من ذلك، قال وانضم إليهم عدد من غيرهم كبير من الناس وجمع كثير ذكر ذلك البلاذرى فى أنسابه فى الجزء الثانى منه صحيفة ٣٧٣ ، قلت ذلك لأن الحق محبوب من ناحية أهل الإيمان ، قال ولعل مبايعته بالإمامة قد جرت فى تلك الفترة ولقبه أصحابه بطالب الحق .

الزحف على العاصمة صنعاء

بعد ماتم الأمر لطالب الحق فى حضرموت قرر الزحف على صنعاء ، مع علمه أن واليها من قبل الدولة الأموية قد تهيأ لمصادمة طالب الحق وجيشه ، وكتب إلى الأباضية الذين بها يستنهض هممهم ، وهذا يدل أن الأباضية فى ذلك العهد موجودون بصنعاء كما هم موجودون فى حضرموت ، وأنهم ذوو أهمية فيها إذ استدعى الحال إعلامهم ، ولأن يكونوا متأهبين عندما يرون جيش المسلمين يزحف على صنعاء ، قال ويطلب منهم الاستعداد واليقظة التامه ، قلت وهذا يؤكد ما قلناه ، قال ويخبرهم أنه قادم إليهم كذا فى الأغانى فى الجزء الثانى أيضاً صحيفة ٩٧ منه ، وحكاه أيضاً البلاذرى فى أنسابه فى الجزء الثانى أيضاً صحيفة ٣٧٣ ، وكان عندما عزم على الزحف على اليمن ولى على حضرموت عبد الله بن سعيد الحضرمى ، وسار على رأس ألفين من أصحابه أى الأباضية خاصة لم يخالطم غيرهم وتوجه إلى صعناء .

والى صنعاء يحشد الحشود لمصادمة طالب الحق

لما تحقق والى صنعاء زحف طالب الحق عليه جمع من أبطال اليمن جيشاً ضخماً لايبرن معه جيش طالب الحق ، إلا أن النصر لم يكن بالكثرة ، (فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله) قال المؤرخ الدكتور : ولما علم الوالى الثقفى بأنباء سير الأباضية إليه أخذ يستعد للقائهم وجمع جيشاً ضخما يصفه البلاذرى بأنه كان ذا عدد كبير وعدة ظاهرة ،

بينما تذكر المصادر الأخرى أن عدد هذا الجش بلغ ثلاثين ألف رجل إلى أن قال : وبالتأكيد كان أكثر عدد وعدة من الجيش الأباضى ، وقد قرر القاسم الثقفى ملاقاة الجيش الأباضى خارج صنعاء ، إذ رأى جيشاً هذا عدده ويلحق به جيش عدوه لا تكفى له صنعاء مسرحاً للمعركة التى سوف تدور .

قال الدكتور : ويبدو أنه ، أى الوالى المذكور ، كان معتدا بقوته وعسكره الكثير ، ولا شك أن تحقيق جيش عدوه قد علمه تماماً من ألسن أعداء الأباضية فى حضرموت قال فهزم ، أى الوالى ، وتراجع إلى صنعاء حيث لحق به طالب الحق وهزمه مرة أخرى هزيمة منكرة لم يقر له بعدها قرار ، بل فر إلى الشام مع بعض جنده واستولى الجيش الأباضى على صنعاء أوردت ذلك المصادر العديدة متفقة كلها على ذلك قال بعضهم : استولى الأباضية على المدينة .

قال وتشير المصادر سنية وأباضية وشيعية إلى أن طالب الحق وأعوانه

الأباضية قد عاملوا السكان معاملة حسنة ، قلت وهذا يدل مما يؤيد مقالنا فيهم وفى نزاهة أعمالهم رحمهم الله ، قال ولم يتعرضوا لأحد بأذى ، قلت وهذه الأخرى من مكارم الأباضية التى عرفوا بها أيام دولهم ووقت سلطتهم ، قال وتورد بعض المصادر الخطبة التى ألقاها طالب الحق فى أهل صنعاء والتى تبين بوضوح بعض آراء الأباضية فى تلك الفترة المبكرة وقد خيّر الناس فيها بين ثلاث خصال أيها شاءوا فليأخذوا بها : الأولى أن يتبنوا الأفكار والآراء الأباضية ويجاهدوا مع أتباعها ، وفى هذه الحالة يتساوون فى الحقوق والواجبات مع إخوانهم الذين سبقوهم إلى هذا الأمر ، ويكون لهم من الأجر ما لأفضلهم ، ومن قسمة الفيء مالبعضهم . الثانية من قال بقولهم ولم يجاهد معهم ، فعليه أن يدعو إلى هذا الرأى بقلبه ولسانه .

قال ولم تذكر الخطبة حقوقاً معينة لمثل هؤلاء الأتباع ، والثالثة أن يلزم من لايقبل هذين الشرطين الحياد] على الرغم من معارضته للمبادئ الأباضية ، وفى هذه الحالة لايتعرض اه أحد بأذى ، وهذا ما عبر عنه طالب الحق بقوله : ومن كرهنا فليخرج، بأمان إلى ماله وأهله ويكف عنايده ولسانه ، فإن ظفرنا لم يكن عرض نفسه ولم يحملنا على صفاك دمه ، وقد سبق لنا أن شرحنا هذه الجمل التى ألقاها الإمام طالب الحق رحمه الله وأوضحنا جوهرها الصحيحح على ضوء المذهب الأباضى .

الامام طالب الحق يبتعد من حصائد المجرمين

قبض الإمام طالب الحق صنعاء وتولى أمرها ، فوجد فى خزائن صنعاء الدولية أموالا طائلة تحرج أخذها وإنفاقها على رجال دولته ، بل رأى الابتعاد منها أولى لأنها جبيت على غير النهج المشروع والجباة ظلمة غير موثوق بجبايتهم ، ولم يمكن الإمام المرضى طالب الحق جنده من شىء منها ورأى إنفاقها فى فقراء أهل صنعاء ، لأن مجهول الأرباب سبيله فقراء المسلمين ، ولذلك فرقها ولم يأخذ شيئا منها ، ولو أخذها لكان له فى أخذها وجه صحيح ، لأن حكم ما فى يد المسلم الحل حتى يصح تحريمه ولولا ذلك لم تحل شربة ماء من أحد لاحتمال أن تكون من حرام ، ولم تحل ضيافة أحد للاحتمال المذكور ، ولكن رحمه الله احتاط لدينه ولإخوانه باتقاء الشبهات والاحتياط للدين مطلوب .

قال محرر القضية ووزع ما استولى عليه من خزائن وأموال بين الناس فى صنعاء وخاصة الفقراء منهم . قال وبقى فى صنعاء عده أشهر يسوس بالعدل ويدعو إلى آرائه ومبادئه بالمعروف والموعظة الحسنة ، حتى كثر جمعه وأتاه الناس من كل وجه . قلت غير مرة إن أئمة الأباضية لا يقومون إلا لنشر العدل وإعادة العمرية فى المسلمين ، فكيف لا يكون العدل أنشودتهم والأمر بالمعروف دعوتهم ، وإصلاح شأن الأمة بغيتهم ، وهم ما قاموا إلا لما فقدوا ذلك فى الأمة ، ولا تجردوا لركوب الأخطار إلا لمراضى الجبار ، والحق هو دين المسلم ، والعمل بالحق هو عمل

المسلم ، وإلا لم يكن مسلما قطعاً ، ألا تسمع الله يقول فى كتابه العزيز : (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى) فهذه الأوامر كلها من العدل ، وهى من الحق ، ولاشك أنها من الإحسان ، والإحسان مما فرض على الإنسان كما نهى عز وجل عن الفحشاء والمنكر والبغى ، فالفحشاء من المنكر ، والمنكر من البغى ، والبغى كذلك ، ولا محيص من ذلك والله المستعان .

الإمام طالب الحق يوجه قائده أبا حمزة لفتح الحجاز

لا يخفى أن المسلمين فى جميع المعمورة يرون الحجاز موطن الإسلام عموماً ومحط رجال المسلمين كافة ، وأن المسلمين كلهم يغارون عليه ويتألمون ممن يعيث فيه فساداً ، ولما كان الفساد ظهر فى البر والبحر ، وكان المتولون للأمر فيه هم المفسدون ، رأى الإمام أن أحق بقعة يجب أن تطهر من فساد أهل الإجرام هو الحجاز ، لذلك جهز جيشه لتطهير ما بالحجاز من سوء ، وجعل قائده ذلك البطل الحر اليقظ أبا حمزة الشارى الذى لا تأخذه لومة لائم ، حتى أطلق عليه اسم الشارى ، وعرف به مع أن شراة المسلمين كثيرون، وعضده ببلج بن عقبة البطل الثانى الذى لايحتاج أن نعرف به ، والثالث أبرهة بن الصباح الحميرى على رأس قوة عسكرية ، فتوجه الجيش إلى مكة للاستيلاء عليها ، وإزالة أعمدة البغى منها ، ثم أصدر أمره على بلج بن عقبة أن يتوجه إلى الشام بعد الفراغ من عمل الحجاز ، كما يقول الدكتور لمحاربة مروان الثانى وإسقاط الخلافة الأموية لتحل محلها الإمامة الأباضية .

وكان الوالى على الحجاز إذ ذاك عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك ، فوافى أبو حمزة مكة فى موسم الحج ، ولما وصلها انضم إليه أهل الإيمان بالله وأهل التقوى لله ، وعلى رأسهم العلامة الجليل التقى أبو الحر على بن الحصين من علماء مكة الذى كان أكبر داعية للأباضية فى الحجاز كله ، قال أهل التاريخ : كان على بن الحصين يدعو للأباضية سراً فى الحجاز ، ويعقد مجالسه الخاصة لهـذا الغرض يومى الاثنين والخميس من كل أسبوع .

قالوا ويقدر عدد الذين اتبعوه وانضموا إلى جيش أبي حمزة الشارى نحو أربعمائة رجل من خيار المسلمين ، حكى ذلك المشايخ الدرجيني والشماخي من الأصحاب غير الأجانب .

يقول بعضهم : فوجئ والى الحجاز عبد الواحد بن سليمان بن عبدالملك بظهور الأباضية على جبل عرفات فى الوقت الذى كان الحجيج يؤدون فيه مناسكهم على نفس الجبل ، قال ولم يجد عبد الواحد بداً من التفاوض معهم وخاصة أنه لم يكن مستعداً من الناحية العسكرية لمثل هذا الحدث فى تلك الظروف ، واتفق الطرفان بعد تبادل الوفود ، والمعنى أن القائد أبا حمزة الشارى والوالى عبد الواحد تفاهما بالواسطة بينهما ، انتهت المفاهمة على أن يتجنب الفريقان الصدام فى أيام الحج ، وأن يترك عبد الواحد مكة ويخليها لأبى حمزة الشارى فور الانتهاء من عمل الحج وأداء المناسك ، وفعلا وفى عبد الواحد بشريطة الاتفاق فخرج من مكة فى العاشر من ذى الحجة عام ١٢٩ هـ ، ودخل الأباضية مكة بدون قتال هكذا يقول المؤرخون عامتهم :

ولما تم لأبى حمزة فتح مكة وتولى أمرها توجه إلى الطائف ، لأنها ابنة مكة لقربها منها واتصالها بها ، واستسلمت له بدون عناء ، بل فتحها له حب الحق وميل النفوس إليه ، لما عرف النـاس من حسن أعمال الأباضية .

قال الدكتور نقلا عن البلاذرى فى الأنساب : وخليفة بن خياط وغيره من المؤرخين قال : وأمن الناس على حياتهم وأموالهم ولم يعرف لهم فى هذين البلدين العظيمين سوءة واحدة ، قال وأعلن أنه لن يتعرض لأحد

بالأذى إلا إذا بدأهم بالعدوان ، ولما تخلى الوالى عبد الواحد عن مكة واحتل أبو حمزة الطائف تبعاً لمكة كتب عبد الواحد لمروان الذى يسمونه الخليفة مروان الثانى يخبره بالغزو الأباضى للحجاز ، ويعتذر له عن خروجه من مكة المكرمة ، قال فغضب الخليفة وعزله عن الولاية وعين بدلا منه عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز ، وأمره أن يعد العدة ويحزم أمره لاسترجاع مكة من أيدى الأباضيه .

قال وامتثل عبد العزيز بن عمر لأمر الخليفة وجهز جيشاً قوامه ثمانية آلاف رجل جلهم من قريش والأنصار وبعض التجار الذين لا علم لهم ولا دراية لهم بالحرب وفنونها ، قلت هذا الكلام أراد أن يمهد به طريقاً لما كان من القائد عبد العزيز لما وقع عليه من الهزيمة ، والحقيقة أن الحرب سجال ، ومن كتب أجله فى ثمان لا يبقى إلى العشر ، ومن جعل أجله فى عشر لا يموت فى ثمان وهكذا مثلا .

ولا يخفى أن شجعاناً فى البشر يعدون عن المئات بل عن الآلاف ولا يزالون كلما دخلوا معركة خرجوا منها ظافرين كأنهم لم يدخلوا الحرب ، فإذا حان حينهم قضى عليهم القدر على يد أضعف المخلوقات ، قال وجعل قيادة هذا الجيش إلى عبد العزيز بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان ، قال وبذلك لم يكن موفقاً فى اختيار عناصر الجند ولا فى اختيار القائد الذى ينتمى إلى عثمان بن عفان ، والذى يعتبره الأباضية ظالماً مخالفاً تجب البراءة منه ، قلت هذا الكلام يشف عن دسائس نفسية ، فإن الذى قتل عثمان هم الذين اعتبروه خائناً وظالماً ومخالفاً تجب البراءة منه ، ومن هم هؤلاء هم أكابر الصحابة وأعيانهم ، فإنه قتل بعد حصار دام أكثر من شهر علم

به الخاص والعام وأعيان المسلمين كلهم فى المدينة وفيهم على بن أبى طالب ، وعائشة أم المؤمنين والمهاجرون والأنصار أكثر من مائة ألف سيف فى إمكانها ترد عنه جيش الروم وجيش كسرى ، وما كان واحد من الأباضية معهم ولا صدرت كلمة واحدة من الأباضية فى قتل عثمان ، إذ لم تكن الأباضية فى أيام عثمان موجودة ، فإن كان الذين فى المدينة يرون عثمان غير مستحق للقتل فقد قصروا حيث لم يدفعوا العادى عنه ، وهم المسئولون أمام الله عن قتله حيث جعلوه إمامهم وبايعوه ، ولما أحاط به العدو لم يقوموا معه . وإن كانوا يرونه مستحقاً للقتل فقد صار معهم ظالماً جارماً مخالفاً تجب البراءة منه ، فلذلك أسلموه للقتل .

ولم يكن الأباضية حاضرين معهم ، فما بال الطعن والغمز على الأباضية بغير حق ، إن الله على لسان كل ناطق والعهدة على القائل . . . .

وكذلك قتل على بن أبى طالب لايرى له الناس قاتلا إلا الأباضية ولا خوارج فى العالم منذ خلق الله الدنيا إلى الآن إلا الأباضية ، أهكذا يقول الحق صدق الله الذى يقول فى كتابه العزيز : (وأكثرهم للحق كارهون) .

فالآن كل الأمة لاترى عدواً فى الإسلام إلا الأباضية ، فلذلك تقف لهم الدنيا على كل مرصد وبكل مكان عداوة سافرة لا مبرر لها إلا كون القوم أباضية أو كونهم على الحق ، فإن الخوارج معروفة لم يكن الأباضية منها فى قبيل ولا دبر ، وأول خارج على عثمان معرفون ولم نجد فيهم أباضياً واحداً ، وكذلك الخارجون على على بن أبى طالب من جنود الشام لم نجد بعد طول العناء والتفتيش أباضياً واحداً ، ولا وجدنا فى قاتليه أباضياً . فما لهؤلاء القوم يتعامون عن الواقع ثم يقذفون به قوماً أبرياء ، وحتى قضية النهروان

لم نجد فيها أباضياً ، بل وجدنا فيها صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، والله على لسان كل ناطق .

قال المؤرخ لهذه القضايا : التقى الأباضية مع الجيش فى قديد على طريق خيبر ، يريد الجيش الشام وذلك فى شهر صفر سنة ١٣٠ هـ ، بعدما أقام بالمدينة ما أقام آمراً ناهيا مسدداً مصلحاً داعياً إلى الله آمراً أن تتبع أوامره وأن تجتنب نواهيه وأن تقام حدوده وأن ترفع بنوده ويعلى مناره ويظهر شعاره ، فدارت المعركة بين الطرفين فقضى الله عز وجل بنصرة الأباضية وانهزم الجيش الأموى شر هزيمة ، وانهزم معه أهل المدينة بعدما فقدوا الكثير من رجالهم ، جاء هذا للبلاذرى فى الجزء الثانى من أنسابه .

ووقع فى أسر الأباضية الكثير من الجيش الأموى ومن أهل المدينة ، قال الناقل : وعلى غير عادة الأباضية فقد قام أبو حمزة الشارى بقتل الأسرى القرشيين ، بينما أطلق سراح الآخرين من الأنصار والقبائل الأخرى ، قلت وهذه دسيسة على أبى حمزة رفعها البلاذرى من عنده لم يذكرها بقية المؤرخين ، قال ولعل سبب ذلك يعود إلى التنافس القبلى الذى ظهر منذ فترة مبكرة بين القبائل العربية وقريش التى احتكرت السلطة لنفسها منذ وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام .

قال وهذا يخالف مبدأ الأباضية فى الإمامة الذى لايعير اهتماما لنسب الخليفة العرقى أو القبلى ، أى أن من عادة الأباضية الاعتماد على التقوى خاصة فى الإمامة ، لايعولون على الأنساب عملا بما جاء فى الكتاب ، إذ يقول الله لنبيه إبراهيم الخليل : (إنى جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتى قال لاينال عهدى الظالمين) ، أى لامنزلة عندى للظالم مهما كان

ومن كان ، فإن الخلق خلقى خلقتهم لعبادتى وكلهم ينتمون إلى عنصر واحد ، فمن استقام منهم بحسب أوامرى مثلك يا إبراهيم فله عندى ما للمحقين من أمتى ، ومن لم يستقم منهم فإنه حارم علىّ إذ خالف أمرى ، فكان فى ذريته عليه السلام الأنبياء والعلماء والزهاد والعباد والجبابرة والظلمة والفساق وأهل الباطل ، ولكل فريق مع الله ما نحا إليه بنفسه واختاره عملا من أعماله .

وشاعت أخبار دخول الأباضية المدينة وهزيمة الجيش الأموى بها وانتصار الأباضية عليه ، وهزت هذه الهزيمة دعائم الدولة الأموية ، فثارت بقضها وقضيضها للانتقام من الأباضية الغزاة ، وكيف يكون للأباضية صوت عال على رءوس الحرمين الشريفين وتصبح المدينة المنورة فى يد الأباضية الذين يمنعونها من أعمال البيت النبوى الأموى .

قال الرواة للقضايا : وصلت أنباء معركة قديد ودخول الأباضية المدينة المنورة إلى أسماع الخليفة مروان الثانى ، الذى قرر أن يضع حداً لانتصارات الأباضية بإنفاذ جيش شامى لقتالهم ، قال فجمع أربعة آلاف من أشجع رجاله ، وأعطى لكل منهم فرساً وبغلا لحمل ثقله ومائة دينار زيادة على عطائه ، وكان معظم الجيش يتكون من القبائل القيسية ، قال وأراد بذلك مروان أن يضرب الأباضية ومعظمهم من القبائل اليمانية برجال من القبائل القيسية الموالين لبنى مروان ، حكى ذلك البلاذرى والطبرى ومن أخذ عنهم ، وكان قائد الجيش من بنى سعد بن بكر بن هوازن ، ولم أدر معنى ما يقوله المؤرخ المشار إليه إن معظم الجيش الأموى من الرجال القيسية .

وفى الأغانى قالوا : وأقام عبد الله بن يحيى بصنعاء أشهراً يحسن

السيرة فيهم ويلين جانبه لهم ، ويكف عن الناس فكثر جمعه وأتته الشراة من كل جانب ، فلما كان وقت الحج وجه أبا حمزة المختار بن عوف ، وبلج ابن عقبة وأبرهة بن الصباح إلى مكه فى تسعمائة ، وقيل بل فى ألف ومائة وأمره أن يقيم بمكة إذا صدر الناس ويوجه بلجا إلى الشام ، وأقبل المختار إلى مكة فقدمها يوم التروية وعليها عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك وأمه بنت عبدالله بن خالد بن أسيد فكره قتالهم .

وحدثنا من هذا الموضع بخبر أبى حمزة محمد بن جرير الطبرى : قال حدثنا العباس بن عيسى العقيلى ، قال حدثنا هارون بن موسى القروى ، قال حدثنا موسى بن كثير مولى الساعديين السليمى ، قال كان أول أمر أبى حمزة وهو المختار بن عوف الأزدى ثم السليمى من أهل البصرة ، أنه كان يوافى فى كل سنة يدعو إلى خلاف مروان بن محمد وآل مروان ، فلم يزل يختلف كل سنة حتى وافى عبد الله بن يحيى فى آخر سنة وذلك سنة ثمان وعشرين ومائة ، فقال له يا رجل إنى أسمع كلاماً حسناً وأراك تدعو إلى حق فانطلق معى فإنى رجل مطاع فى قومى ، فخرج به حتى ورد حضرموت فبايعه أبو حمزة على الخلافة .

قال وقد كان مر أبو حمزة بمعدن بنى سليم وكثير بن عبد الله عامل على المعدن فسمع بعض كلامه ، فأمر به فجلد أربعين سوطاً ، فلما ظهر أبو حمزة بمكة تغيب كثير حتى كان من أمره ما كان ، ثم رجع إلى موضعه قال فلما كان فى العام المقبل تمام سنة تسع وعشرين لم يعلم الناس بعرفة إلا وقد طلعت أعلام عمائم سود خرمية فى رءوس الرماح ، وهم سبعمائة هكذا قال ، هذا وذكر المدائنى أنهم كانوا تسعمائة أو ألفا ومائة ففزع

الناس منهم حين رأوهم ، وقالوا لهم مالكم وما حالكم ؟ فأخبروهم بخلافهم مروان وآل مروان والتبرؤ منهم ، فراسلهم عبد الواحد بن سليمان وهو يومئذ على المدينة ومكة والموسم ودعاهم إلى الهدنة ، فقالوا نحن بحجنا أضمن وعليه أشح ، فصالحهم على أنهم جميعاً آمنون بعضهم من بعض حتّى ينفر الناس النفر الأخير ، وأصبحوا من غد فوقفوا على حدة بعرفة ، ودفع عبد الواحد بالناس .

فلما كانوا بمنى قالوا لعبد الواحد إنك قد أخطأت فيهم ولو حملت عليهم الحاج ما كانوا إلا أكلة رأس . فنزل أبو حمزة بقرن الثعالب من منى ونزل عبدالواحد منزل السلطان ، فبعث عبدالواحد إلى أبي حمزة عبد الله بن حسن ابن حسن بن على عليهم السلام ، ومحمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان ، وعبد الرحمن بن القاسم بن محمد بن أبى بكر ، وعبد الله بن عمر بن حفص بن عاصم بن عمر بن الخطاب . وربيعة بن أبى عبد الرحمن فى رجال من أمثالهم ، فلما دنوا من قرن الثعالب لقيتهم مسالح أبى حمزة فأخذوهم فدخل بهم على أبى حمزة فوجدوه جالساً وعليه إزار قطرى قد ربطه بحَوْزه فى قفاه ، فلما دنوا تقدم إليه عبد الله بن حسن ومحمد بن عبد الله بن عمرو فنسبهما ، فلما انتسب له عبس فى وجهيهما وبسر وأظهر الكراهة لهما ، ثم تقدم إليه بعدهما البكرى والعمرى فنسبهما فلما انتسبا له هش إليهما وتبسم فى وجوههما ، وقال : والله ماخرجنا إلا لنسير بسيرة أبويكما ، فقال له عبد الله بن حسن والله ما جئناك لتفاضل بين آبائنا ولكن بعثنا إليك الأمير برسالة وهذا ربيعة يخبركها .

فلما ذكر ربيعة نقض العهد قال باج وأبرهة وكانا قائدين له الساعة

الساعة أقبل وقال معاذ الله أن ننقض العهد أو نخيس به ، والله لا أفعل ولو قطعت رقبّى هذه ، ولكن تنقضى هذه الهدنة بيننا وبينكم ، فلما أبى عليهم خرجوا فأبلغوا عبد الواحد ، فلما كان النفر الأول نفر عبدالواحد وخلى مكة لأبى حمزة فدخلها بغير قتال .

قال هارون وأنشدنى يعقوب بن طلحة الليثى أبياتاً هجى بها عبدالواحد اشاعر لم يحفل باسمه :

زار الحجيج عصابة قـــد خالفوا

دين الإله ففـــر عبد الواحد

ترك الإمارة والحلائل هـــارباً

ومضى يخبّط كالبعـــير الشارد

لو كان والده تخـــير أمه

لصفت خـــلائقه بعرق الوالد

قال ثم مضى عبد الواحد حتى دخل المدينة فدعا بالديوان وضرب على الناس البعث وزادهم فى العطاء عشرة عشرة ..

قال العباس : قال هارون أخبرنى بذلك أبو ضمرة أنس بن عياض قال : كنت فيمن اكتتب ، قال ثم محوت اسمى ، قال العباس قال هارون : وحدثنى غير واحد من أصحابنا أن عبد الواحد استعمل عبد العزيز بن عبد الله بن عمرو بن عثمان على الناس فخرجوا ، فلما خرجوا وكانوا بالحرة لقيتهم جزر منحورة فضوا ، فلما كانوا بالعقيق تعلق لواؤهم

بسمرة فانكسر الرمح وتشاءم الناس بالخروج ، ثم ساروا حتى نزلوا قديداً فنزلوها ليلا .

وكانت قديد من ناحية القصر المبنى اليوم وكانت الحياض هناك ، فنزل قوم مغترون وليسوا بأصحاب حرب فلم يرعهم إلا القوم قد خرجوا عليهم من القصل ، فزعم بعض الناس أن خزاعة دلت أبا حمزة على عورتهم وأدخلوهم عليهم فقتلوهم ، وكانت المقتلة على قريش وهم كانوا أكثر الناس ، وفيهم كانت الشوكة ، فأصيب منهم عدد كثير .

قال العباس : قال هارون فأخبرنى بعض أصحابنا أن رجلا من قريش نظر إلى رجل من أهل اليمن يقول : الحمد لله الذى أقر عينى بمقتل قريش ، فقال له ابنه الحمد لله الذى أذلهم بأيدينا ، فما كانت قريش تظن أن من نزل على عمان من الأزد عربى ، قال وكان هذان الرجلان مع أهل المدينة ، فقال القرشى لابنه يا بنى هلم نبدأ بهذين الرجلين ، قال نعم يا أبت . فحملا عليهما فقتلاهما ، ثم قال لابنه أى بنى تقدم فقاتلا حتى قتلا ، وقال المدائنى القرشى كان عمارة بن حمزة بن مصعب بن الزبير ، والمتكلم بالكلام مع ابنه رجل من الأنصار .

قال ثم ورد فلال الجيش المدينة وبكى الناس قتلاهم ، فكانت المرأة تقيم على حميمها النواح فلاتزال المرأة يأتيها الخبر بمقتل حميمها فتنصرف حتى ما يبقى عندها امرأة فأنشدنى أبو ضمرة هذه الأبيات فى قتلى قديد الذين أصيبوا من قومه لبعض أصحابهم :

بالهف نفسى ولهف غير نافعة
على فوارس بالبطحاء أنجاد

عمرو وعمرو وعبد الله بينهما
وابناهما خامس والحارث السادى

قال المدائنى فى خبره : كتب عبد الواحد بن سليمان إلى مروان يعتذر من إخراجه عن مكة ، فكتب مروان إلى عبد العزيز وهو عامله على المدينة يأمره بتوجيه الجيش إلى مكة ، فوجد ثمانية آلاف رجل ، والتجار أغمار لا علم لهم بالحرب ، فخرجوا فى المصبغات والثياب الناعمة واللهو ، لايظنون أن للخوارج شوكة ولايشكون أنهم فى أيديهم ، وقال رجل من قريش : لو شاء أهل الطائف لكفونا أمر هؤلاء ، ولكنهم داهنوا فى أمر الله تعالى ، والله إن ظفرنا لنسيرن إلى أهل الطائف فلنسبينهم ، ثم قال من يشترى منى سبى أهل الطائف . فلما انهزم الناس رجع ذلك الرجل القائل من يشترى منى سبى أهل الطائف فى أول المنهزمين ، فدخل منزله وأراد أن يقول لجاريته أغلقى الباب ، فقال لها غاق باق دهشاً ، ولم تفهم الجارية قوله حتى أومأ إليها بيده فأغلقت الباب ، فلقبه أهل المدينة بعد ذلك غاق باق .

قال وكان عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز يعرض الجيش بذى الحليفة ، فمر به أمية بن عنبسة بن سعيد بن العاصى ، فرحب به وضحك إليه ، ومر به عمارة بن حمزة بن مصعب بن الزبير فلم يكلمه ولم يلتفت إليه ، فقال له عمران بن عبدالله بن مطيع ، وكان ابن خالته أمّاهما ابنتا عبدالله بن خالد بن أسيد : سبحان الله مربك شيخ من شيوخ قريش فلم تنظر إليه ولم تكلمه ، ومربك غلام من بنى أمية فضحكت له ولاطفته ، أما والله لو قد التقى الجمعان لعلمت أيهما أصبر .

قال فكان أمية بن عنبسة أول من انهزم ونكب فرسه ومضى ، وقال لغلامه : يامجيب أما والله لئن أحرزت نفسى هذه الأكلب من الشراة إنى لعاجز ، وقاتل يومئذ عمارة بن حمزة بن مصعب حتى قتل ، وتمثل بقول القائل :

وإنى إذا ضن الأمير بإذنه
على الإذن من نفسى إذا شئت قادر

والشعر للأغر بن حماد اليشكرى ، قال ولما بلغ أبا حمزة إقبال أهل المدينة إليه استخلف على مكة أبرهة بن الصباح . وشخص إليهم وعلى مقدمته بلج بن عقبة ، فلما كان فى الليلة التى وافاهم فى صبيحتها وأهل المدينة نزول بقديد قال لأصحابه : إنكم لاقوا قومكم غداً وأميرهم فيما بلغنى ابن عثمان أول من خالف سيرة الخلفاء وبدل سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وقد وضح الصبح لذى عينين فأكثروا ذكروا الله تعالى وتلاوة القرآن ، ووطنوا أنفسكم على الصبر . وصبحهم غداة الخميس لتسع أو لسبع من شهر صفر سنة ثلاثين ومائة ، فقال عبد العزيز لغلامه أبغنا علفاً ، قال هو غال . قال ويحك ! البواكى علينا غداً أغلى .

وأرسل إليهم أبو حمزة بلج بن عقبة ليدعوهم فأتاهم فى ثلاثين راكباً فذكرهم الله تعالى وسألهم أن يكفوا عنهم ، وقال لهم خلوا لنا سبيلنا إلى الشام لنسير إلى من ظلمكم وجار فى الحكم عليكم ، ولاتجعلوا حدّنا بكم فإنا لا نريد قتالكم ، فشتمهم أهل المدينة ، وقالوا يا أعداء الله أنحن نخليكم وندعكم تفسدون فى الأرض . فقالت الخوارج يا أعداء الله أنحن نفسد فى الأرض ، إنما خرجنا لنكف أهل الفساد ونقاتل من قاتلنا واستأثر

بالفيء ، انظروا لأنفسكم واخلعوا من لم يجعل الله له طاعة فإنه لاطاعة لمن عصى الله ، وادخلوا فى السلم وعاونوا أهل الحق . فقال له عبد العزيز ماتقول فى عثمان ؟ قال قد برئ المسلمون منه قبلى وأنا متبع آثارهم ومقتد بهم ، قال فارجع إلى أصحابك فليس بيننا وبينهم إلا السيف . فرجع إلى أبى حمزة فأخبره : فقال كفوا عنهم ولا تقاتلوهم حتى يدعوكم بالقتال فواقفوهم ولم يقاتلوهم .

القائد الأموى يزحف على قتال الأباضية

لقد قلنا غير مرة إن مهمة الجيش الأباضى وقواده إقامة منار العدل ، أما مهمة غيره فهى الملك العضوض الذى قام به أول قائد أموى الذى قاتل إمام العدل على بن أبى طالب ، ولما انتصر عليه أمر بلعنه جهاراً على المنابر وعلى رءوس الخلائق ، وهؤلاء يقولون فيه رضى الله عنه ومن أراد الحق من الأباضية فحقه أعظم من اللعن ، سبحان من يعلم من أعمال عباده ما يوجب الانتقام ، ثم لا يعجل عليهم ويرى أعمال أهل الحق :

إلى ديان يـــــوم الدين نمضى
وعند الله تجتمع الخصـــــوم

وهذا القائد للجيش الأموى هذه المرة هو عبد الملك بن محمد بن عطية ، فتوجه إلى الحجاز . ولما علم الأباضية بذلك أرسل أبو حمزة الشارى قائده بلج بن عقبة لملاقاة الشاميين ، وكان اللقاء بينهما فى وادى القرى ، ودارت رحى الحرب بين الطرفين ، فانهزم الأباضية شر هزيمة ، ذلك لأنهم كانوا قليلين وكان أهل المدينة عليهم مع الجيش الأموى ، وقتل أكثرهم فى هذه الوقعة ، وقتل فيهم بلج بن عقبة الذى كان وحده يمثل جيشاً ، وبذلك وجد أبو حمزة الشارى أن لا قبل له بملاقاة الجيش الأموى الذى احتوى على آلاف الرجال الذين جاء بهم .

والتف حوله أهل المدينة نصرة لآل مروان ، ومكافحة لأهل الإيمان الذين لم يعرف لهم فى حرب مّا شىء يخالف منهاج القرآن أبداً ، بعد

هذه الهزيمة التى أصابت جنده قرر ترك المدينة ، لأن الجيش الذى جاء به من اليمن كله أربعمائة رجل ، وقد أخذت الحرب أعيانهم وصناديدهم فى قديد ، وبقى معه القليل من الرجال ، وأين اليمن عنه وأين عمان وأين البصرة أيضاً ، وبذلك قرر العودة إلى مكة .

وذلك لأن أهل المدينة كانوا أكثر عداء له لما أصابهم من القتل فى قديد ، وهنا أرادوا أن يتشفوا وينتصفوا كما يقولون . والحقيقة هم العادون عليه ، فإنه سألهم عن أعمال ولاتهم فأجابوه بما يسوء فطلب منهم أن يكونوا معه فأبوا عليه ، ثم قال لهم لاتمالئوهم ولا تكونوا معهم فلم يلتفتوا ، فلذلك رأى قتلهم لأنهم واجهوه بالعداء السافر الذى لامبرر له مع أنه سألهم : فذكروا له سيئ أعمالهم ، ولكن الجهل تحكم عليهم . (ومن يضلل الله فما له من هاد) .

ولاشك أن أبا حمزة كان رجلا عاقلا دينا يغار على حرم الله إذا رآها تهتك ، وسنته توطأ بالأقدام ، وكل مؤمن يتأثر من مثل هذا الحال مهما كان ، فاحتل الجيش الشامى المدينة ، وقتل من بها من الأباضية قتل عاد وإرم ، وكان زعيم الأباضية بالمدينة المفضل .

قال الناقل ذو المصدر الصحيح : وقد تعاون أهل المدينة والجند الشامى على الفتك بهم بعد ما أنقذهم من الظلم الذى نزل بهم ، والذل الذى أحاط بهم ، ولما انتصر ابن عطية بالمدينة وبلغه أن أبا حمزة عجز عن مصادمته وراح إلى مكة ملتجئاً بها ، توجه إلى مكة للحاق به ، وذلك من طبيعة المنتصر ، ألا ترى أن أبا حمزة لما انتصر فى اليمن وفى

مكة وفى الطائف ، فإن عدم مقاومته فى هاتين المرحلتين نشط للمدينة ، ولما هزم عدوه فى قديد نشط لحرب الشام ، وهنا انعكس الحال وأصبح أبو حمزة فى مكة خائفا يترقب .

ولما وصل الجيش الأموى المنتصر مكة فى عام ١٣٠هـ الموافق ٧٤٧م فى التاريخ المذكور ، وكان انجرف مع عبد الملك قائد الجيش الأموى غالب أهل المدينة ، ولم يقدر أهل مكة أن يلتفتوا مع أبى حمزة خوفا من الجيش القادم المنتصر ذلك ليقضى الله أمراً كان مفعولا ولامعقب لحكم الله ، فإنه نافذ لا محالة ، فدارت بين الفريقين معركة ضارية انتهت بمقتل أبى حمزة وأكثر رجاله الباقين معه وأعيان الأباضية الذين فى مكة وعلى رأسهم أبو الحر على بن الحصين من أكبر علماء الأباضية فى مكة ، وأسر من الأباضية قدر أربعمائة رجل أمر القائد المذكور بقتلهم جميعاً ، فقتلوا عن آخرهم تشفيا بمن قتلوا فى المدينة ، وقد عرفت الفرق بين الطائفتين فى مقاصدهم ، وكل القوم الذين قتلوا فى المعركة والذين قتلوا بعد أسرهم أباضية لم يخالطهم غيرهم ، قال وفر من تبقى من الأباضية ، وأنا أقول لم يتبق من الأباضية أحد هنا ، قال ولحقوا بالإمام طالب الحق الذى كان آنذاك يتأهب للمسير للقاء أهل الشام لما بلغه خروجهم على أبى حمزة وأصحابه ، لكن المنية قد حامت على أرواح هؤلاء الرجال فقضت عليهم .

وفى الأغانى قال : فرمى رجل من أهل المدينة فى عسكر أبى حمزة بسهم فجرح رجلا ، فقال أبو حمزة شأنكم الآن بهم فقد حل قتالهم ، فحملوا عليهم وثبت بعضهم لبعض ، وراية قريش مع إبراهيم بن عبد الله

ابن مطيع ، ثم انكشف أهل المدينة فلم يتبعوهم ، وكان على مجنبتهم صخر بن الجهم بن حذيفة العدوى، فكر وكر الناس معه ، فقاتلوا قليلا ثم انهزموا فلم يبعدوا حتى كروا ثالثة ، وقاتلهم أبو حمزة فهزمهم هزيمة لم تبق منهم باقية .

فقال له على بن الحصين : اتبع القوم أو دعنى أتبعهم فأقتل المدبر وأذفف على الجريح ، فإن هؤلاء شر علينا من أهل الشام، فلو قد جاءوك غداً لرأيت من هؤلاء ما تكره ، فقال لا أفعل ولا أخالف سيرة أسلافنا، وأخذ جماعة منهم أسرى ، فأراد إطلاقهم فمنعه على بن الحصين ، وقال له : إن لأهل كل زمان سيرة وإن هؤلاء لم يؤسروا وهم هراب ، وإنما أسروهم يقاتلون ولو قتلوا فى ذلك الوقت لم يحرم قتلهم ، وكذلك الآن قتلهم حلال ، فدعابهم فكان إذا رأى من قريش رجلا قتله وإذا رأى رجلا من الأنصار أطلقه فأتى بمحمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان فنسبه فقال أنا رجل من الأنصار ، فسأل الأنصار عنه فشهدوا له فأطلقه فلما ولى قال : والله إنى لأعلم أنه قرشى وما حذوة هذا حذوة أنصارى ، ولكن قد أطلقته .

قال وقد بلغت قتلى قديد ألفين ومائتين وثلاثين رجلا منهم من قريش أربعمائة وخمسون رجلا ، ومن الأنصار ثمانون ، ومن القبائل والموالى ألف وسبعمائة ، قال وكان فى قتلى قريش من بنى أسد بن عبد العزى أربعون رجلا ، وقتل يومئذ أمية بن عبد الله بن عمرو بن عثمان ، خرج يومئذ مقنعا فما كلم أحداً وقاتل حتى قتل ، وقتل يومئذ سمى مولى أبى بكر رضى الله عنه الذى يروى عنه أنس بن مالك ، ودخل بلج المدينة بغير حرب فدخلوا فى طاعته وكف ، ورجع أبو حمزة إلى مكة وكان

على شرطته أبو بكر بن عبد الله بن عمرو من آل سراقة من بنى عدى ؛

فكان أهل المدينة يقولون لعن الله السراقى ولعن بلجا العراقى وقالت نائحة من المدينة تبكيهم :

ما للزمان وماليه ... افنت قديدُ رجاليه
فلأبكين سريرة ... ولأبكين علانيه
ولأبكين إذا خلوت ... مع الكلاب العاويه
ولاثنين على قديد ... بسوء ما أبلانيه

فى هذه الأبيات هزج قديم أشبه أن يكون لطويس أو بعض طبقته ؛
وقال عمرو بن الحصين الأباضى الكوفى مولى بنى تميم يذكر وقعة قديد وأمرمكة ودخولهم إياها ، وأنشدنيها الأخفش عن السكرى والأحول وثعلب لعمرو هذا وكان يستجيدها :

ما بال همك عنك ليس بعارب
يمرى سوابق دمعك المتساكب
وتبيت تكتلئ النجوم بمقلة
عبرى تسر بكل نجم دائب
حذر المنية أن تجيء بداهة
لم أقض من تبع الشراة مآربى
فأقود فيهم للعدا شنج النسا
عبل الشوى أشران ضمر الحالب
متخدداً كالسّيد أخلص لونه
ماء الحسيك مع الجلالة اللاتب

أرمى به من جمع قومى معشرا

بوراً أولى حبرية ومعائب

فى فتية صُبُر ألفهم به

لف القداح يد المفيض الضارب

فندور نحن وهم وفيما بيننا

كأس المنون تقول هل من شارب

فنظل نسقيهم ونشرب من قنا

سمر ومرهفة النصول قواضب

بينا كذلك نحن جارت طعنة

نجلاء بين رهائب وترائب

جوفاء منهرة مرى تأمورها

ظبتا سنان كالشهاب الثاقب

أهوى لها شق الشمال كأننى

حفض لقى تحت العجاج الغاضب

يارب أو جبها ولا تتعلقن

نفسى المنون لدى أكف أقارب

كم من أولى مقة صحبتهم شروا

فخذلتهم ولبئس فعل الصاحب

متأوهين كأن فى أجوافهم

ناراً تسعرها أكف حواطب

تلقاهم فتراهم من راكع

أو ساجد متضرع أو ناحب

ينلو قوارع تمترى عبراته

فيجودها مرى المرى الحالب

مستبرٌ لحائقة الأمور أطبة

للصدع ذى البناء الحليل مرائب

ومبرئين من المعايب أحرزوا

خُصَل المكارم أتقياء أطايب

عروا صوارم للجلاد وباشروا

حد الظباة بآنف وحواجب

ناطوا أموهم بأمر أخ لهم

فرمى بهم لقم الطريق اللاحب

متسربلى حلَق الحديد كأنهم

أسد على لحُق البطون سلاهب

قيدت من أعلى حضرموت فلم تزل

تنفى عداها جانبا عن جانب

تحمى أعنتها وتحوى نهبها

لله أكرم فتية وأشايب

حتى وردن حياض مكة قُطَّباً

يحكين واردة اليمام القارب

ما إن أتين على أخى جبرية

إلا تركنهم كأمس الذاهب

فى كل معترك لها من هامهم

فلق وأيد علقت بمناكب

سائل بيوم قديد عن وقعاتها
تخبرك عن وقعاتها بعجائب

وقال عمرو بن الحصين أيضاً ويقال الحسين العنبرى مولى لهم يرثى عبد الله بن يحيى وأبا حمزة رحمهما الله :

هبت قبيل تبلج الفجر
هند تقول ودمعها يجرى
أن أبصرت عينى وأدمعها
ينهل واكفها على النحر
أنى اعتراك وكنت عهدى لا
سَرِبَ الدموع وكنت ذا صبر
أقذىً بعينك ما يفارقها
أم عائر أم مالها تذرى
أم ذكر إخوان فجعت بهم
سلكوا سبيلهم على خُبُر
فأجبتها بل ذكر مصرعهم
لاغيره عبراتها تمرى
يارب فاسلكنى سبيلهم
ذا العرش واشدد بالتقى أزرى
فى فتية صبروا نفوسهم
للمشرفية والقنا السمر
تالله ألقى الدهر مثلهم
حتى أكون رهينة القبر

أوفى بذمتهم إذا عقدوا
وأعف عند العسر واليسر
متأهلين لكل صالحة
ناهين من لاقوا عن النكر
صمت إذا حضروا مجالسهم
من غير ما عي بهم يزرى
إلا تحيتهم فإنهم
رجف القلوب بحضرة الذكر
متأوهين كأن جمر غضى
للخوف بين ضلوعهم يسرى
تلقاهم إلا كأنهم
لخشوعهم صدروا عن الحشر
فهُمُ كأن بهم جوى مرض
أو مسهم ظرب من السحر
لا ليلهم ليل فيلبسهم
فيه غواشى النوم بالسكر
إلا كرى خلسا وآونة
حذر العقاب وهم على ذعر
كم من أخ لك قد فجعت به
قوّام ليلته إلى الفجر
متأوه يتلو قوارع من
آى القرآن مفزع الصدر

نصب تجيش بنات مهجته
بالموت جيش مُشَاشة القدر
طمآن وفدة كل هاجرة
تراك للذته على قـــدر
رقاص ما تَهوى النفوس إذا
رُغَب النفوس دعت إلى النذر
ومبرأ من كل سيئة
عف الهوى ذو مرة تزر
والمصطلى بالحرب يسعرها
بغبارهـا وبفتية سـعر
يختاضها بأقل ذى شطب
عضب المضارب قاطع البتر
لاشىء يلقاه أسرّ لـه
من طعنة فى ثغرة النحر
نجلاء منهرة تجيش بما
كانت عواصى جوفه تجرى
كخليلك المختار أذك به
من مغتد فى الله أو مشرى
خواص غمرة كل متلفة
فى الله تحت العثير الكدر
تراك ذى النخوات مختضبا
بنجيعـــة بالطعنـة الشزر

وابن الحصين وهل له شبه .
في العرف أنَّى كان والنكر
بسامة لم تُحنَ أضلعه
لذوى أخولة على غمر
طلق اللسان بكل محكمة
رَأب صدع العظم ذى الوقر
لم ينفكَّ في جوفه حزن
تغلى حرارته وتستشرى
ترقى وآونة يخفضها
بتنفس الصعداء والزفر
ومخالطى بلج وخالصتى
سم العدو وجابر الكسر
نكل الخصوم إذا هم شغبوا
وسداد ثلمة عورة الثغر
والخائض الغمرات يخطر فى
وسط الأعادى أيما خطر
بمشطب أو غير ذى شطب
: هام العدا بذبابة يفرى
وأخيك أبرهة الجان أخى
الحرب العوان ملقح الجمر
بمرشة فرغ تثج دما
ثج الغوى سلافة الخمر

والضارب الأخدود ليس لها
حد ينهها عن السحر
وولى حكمهن فجعت به
عمرو فواكبدى على عمرو
قوال محكمة وذى فهم
عف الهوى متثبت الأمر
ومسيب فاذكر وصيته
لا تنس إما كنت ذا ذكر
فكلاهما قد كان محتسبا
لله ذا تقوى وذا بر
فى مخبتين ولم نُسمهم
كانوا يدى وهم أولى نصرى
وهم مساعر فى لوغى رجح
وخيار من يمشى على العفر
حتى وفوا لله حيث لقوا
بعهود لا كذب ولا غدر
فتخالسوا مهجات أنفسهم
وعداتهم بقواضب بتر
وأسنة أثبتن فى لدُن
خطية بأكفهم زهر
تحت العجاج وفوقهم خرق
يخفقن من سود ومن حمر

فتوقدت نيرانُ حربهم
ما بين أعلى البيت والحجر
فتفرجت عنهم كمائنهم
لم يغمضوا عينا على وتر
فشعارهم نيران حربهم
ما بين على مسْحر والنحر
صرعى فحاجلة تنوبهم
وخوامع لحمانهم تبرى





مقتل الإمام طالب الحق رحمه الله

خرج الإمام طالب الحق من صنعاء للقاء عبد الملك بن محمد بن عطية القائد الأموى ، الذى سار بدوره إلى اليمن للاستيلاء عليه بعد أن أعاد ضم المدن الحجازية إلى الإدارة الأموية كما يقولون ، والتقى الطرفان قيل بتبالة وقيل بجرش بين مكة واليمن ، وهو أقرب إلى مكة ودارت رحى الحرب بينهم ، وكان الطالع فى صالح الجيش الأموى، فانهزم طالب الحق وقتل رحمه الله ، وقتل الكثير من رجاله وسار ابن عطية حتى أتى صنعاء وأعاد اليمن لسلطة الأمويين ، قال ولم يلبث الأباضية أن اجتمعوا حول يحيى بن عبد الله بن عمرو بن السباق الحميرى الذى انتخبوه فبايعوه على الدفاع إماماً لهم ، فبعث إليهم عبد الملك حملة بقيادة ابن أخيه عبدالرحمن ابن زيد ، والتقى مع الأباضية فى معركة قاسية، لكن لم يحدد التاريخ مكانها لكنها لم تنته فى صالح أحد من الطرفين رغم ما وقع فيها من القتل الفظيع ، ورجع المذكور إلى صنعاء فاستشاط عبد الملك وتحمس، على الأباضية واشتد وهم أن يعدمهم من الوجود إن استطاع .

تقول بعض المصادر : التجأ عبد الله بن يحيى وأتباعه من الأباضية إلى عدن فساق إليهم عبد الملك أهالى صنعاء ومن الموالين للبيت الأموى ومن أعداء الأباضية إن لم نقل من أعداء الحق ، ولو أراد الله بأهل اليمن خيراً بل وبأهل الحجاز لأبقى الزعامة الأباضية فيهما ، لكن لله فى عباده إرادات ، وتلاقى الطرفان فى أحد أودية عدن، فدارت الحرب بينهما كأشد ما يكون ، فانهزم الأباضية لكثرة جيش عدوهم وقلتهم هزيمة منكرة ، وقتل قائدهم وإمام دفاعهم يحيى بن عبد الله الحميرى ، ثم قام يحيى بن

كرب الحميرى فتولى قيادة الأباضية ، ولكن لم يطل وقته إذ التقى بعدوه قرب ساحل البحر العربي فانهزم في معركة حامية .

وبتوالى الهزائم على الأباضية فى اليمن اختلت قوتهم والتجأوا بالمناطق الداخلية من حضرموت والناس خصوصاً السواد الأعظم يكون طبعاً عند الغالب ، وهنا يرأسهم عبد الله بن سعيد الحضرمى إذ بايعوه إمام دفاع ، والتف تحت جناحه القائد المتقدم يحيى بن كرب الحميرى السالف الذكر ؛ فتجهز لهم عبد الملك ليعـدمهم من أرض اليمن ، ويدمرهم فى آخر حصونهم ويستريح من صراعهم ، واستعد الأباضية لهذا اللقاء المرتقب كما يقول الدكتور ، وتجمعوا من أنحاء مختلفة لعلاج هذا البلاء النازل بأرضهم وخصوصاً من حضرموت ، وكان نظرهم آخر أمرهم لحماية أنفسهم من الهجمات التى تتوالى عليهم ببطش الجيش الجبار الذى لا يرى إلا التشفى منهم والقضاء على حياتهم حتى لا تقوم لهم قائمة تخشاها الدولة الأموية .

وتذكر الروايات : أن جماعات من كندة ونهد وهمدان قد احتشدوا والتفوا حول عبد الله بن سعيد إمام الأباضية ، واتخذ هذا الإمام شبام قاعدة له .

قال : وملأ الأباضية حصونهم بالمؤن والطعام التى جمعها الأباضية والعتاد الوافر ، وجعلوها عدة إذا حوصروا تكون لهم عوناً على حرب عدوهم ؛ ولعلهم يرجعون إذا رأوا غلبة عليهم (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) ثم ساروا للقاء الجيش الأموى الظافر عليهم علماً بأن الحرب سجال ،

وكما انتصروا سابقاً انتصر عليهم لاحقاً ، فإن طالب الحق وأبا حمزة أحرزا انتصاراً قوياً على خصومهم ، ثم عادت الكرة عليهم ابتلاء من الله عز وجل ، وعند الله تجتمع الخصوم ، ثم دارت هنا الحرب خارج حصن شبام حيث خرجوا للقاء الجيش الأموى ، وخلفوا حصونهم وراءهم واستمرت المعركة طيلة النهار ، وكل أخذ من صاحبه مأخذا ، وكأن ميزان هذه الحرب لم يرجح على جانب .

ولما تمكن الليل وهبط الظلام ، أرسل عبد الملك من رجاله من يقتحم على حصون الأباضية لأخذ الذخيرة التى فيها مما جمعه الأباضية واستعدوه ، فاحتلوا حصون شبام وقبضوا على ما فيها ، ولعل ذلك لخيانة بعض من عساكر الأباضية وباطنه عليهم ، وسيطروا على الحصون وعلى الذخيرة ، ومنعوا من فى الحصون من الخروج ، ومازال الموقف حرجاً جداً ، ولكنه لم يثن من عزائم الأباضية ، فإنهم قاتلوا قتالا شديداً وصبروا صبراً مريراً ، نظراً لعقيدتهم الصحيحة ، إن من وراء الموت الجنة التى هى المقصودة بالذات ، وإن ما يلاقون من مصائب فهين وقد حملوا عقيدة الفرار من الحرب حرام يدخل صاحبه النـار ، لقوله عز وجل : (ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله) .

بهذه العقيدة تخرج أرواح الأباضية فى الحرب من أجسادها فلا يقاتلون لدنيا يصيبونها أو امرأة يتزوجونها أو رئاسة يريدونها ، وفى هذه الحرب الضارية لم يستطع عبد الملك إحراز نصر حاسم عليهم ، ثم تراجعت قوتهم والتأم جرحهم واشتدت شكيمتهم ، واضطر عبد الملك أن يصالحهم حين

رأى الأباضية تجمع قواها من جديد ويتراجع إليهم بأسهم وترتفع أصواتهم بمواجهة عبد الملك فى ميدان القتال واضطروه للالتجاء إلى أحد المواقع الحصينة ، إذ رأى شررهم يتقد جمراً حيث حاصروه أربعة عشر يوماً ؛ دعاه ذلك الحصار إلى أن يتنازل لعقد صلح معهم خصوصاً أباضية حضرموت تعهد لهم فيه أن لايولى عليهم إلا رجلا منهم ، ومعنى هذا خضوعه لهم ورد أمرهم إليهم ورد عليهم ما انتهب من متاعهم الذى استولى عليه فى حصن شبام ، ورأى منهم ما لم يكن له فى الحسبان ، وهب للتملص من سطوتهم فتكون الكرة عليه ، وعند ذلك تجهز للخروج إلى مكة ليترأس موسم الحج فى ظاهر الحال .

الأباضية يقتلون ابن عطية

لقد أشرنا إلى أن ابن عطية أراد أن يفر عن صراع الأباضية ، ولما آن موسم الحج أعلن أنه يريد أن يترأس موسم الحج لأنه أمير اليمن والحجاز ، وقد اجتمع له ملك كبير مترامى الأطراف ، فترك ابن أخيه أميراً على اليمن وخرج فى رهط من رجاله الذين يطمئن بصحبتهم ، قيل إن عددهم أربعون فلحقه رجال من الأباضية فهجموه فى طريقه أخذاً بثأر من قتلهم من رجالهم فقتلوه هو ومن معه جميعاً ، روت هذا مصادر عديدة كالبلاذرى وهو أوسع مصدر اشتغل بأمور الأباضية وأعدائهم مع بغضه للأباضية ، وكذلك الشيخ الدرجينى والأزكوى والطبرى والمسعودى وابن خياط ، وجملة من رجال العلم الذين عنوا بالتاريخ الإسلامى ، وإن كان كل له أرب فى تاريخه ولكل درجات مما عملوا ، والله ولى كل شىء والدنيا صراع متواصل واحتكاك لايزال ما وجدت الحياة الإنسانية فيها .

ولما علم ابن أخيه بقتله وأن الأباضية هم قتلوه ، قال الدكتور : بعث شعيباً البارق على رأس جيش من اليمن معظمه من الرجال القساة الأجلاف الذين جمعهم من جبال اليمن ، والمعنى أن عبد الرحمن بن يزيد ابن عطية اختارهم للانتقام من الأباضية ، لأن أهل الحق لايوافقون على فعل مالا يحل .

وهذا هو دأب الحروب عند غير الأباضية لايعتمدون إلا ما يهواه هواهم أو يرونه أشفى لسياستهم ، فإن الحق عندهم لاقيمة له ولايتقيدون

بمبادئه مهما كانت ،فثار هؤلاء الأجلاف ، كما يقول الدكتور ، وهجموا على الأباضية وأعملوا السيف فيهم ، وخاصة فى الأباضية بحضرموت ، وقتلوا عبد الله بن سعيد إمام حضرموت ، الحالى فى أوائل عام ١٣٢ هـ .

قال : وبهذه الموقعة قضى على الإمامة الأباضية هناك وعاد الأباضية إلى مرحلة الكتمان ، قال ولكن بعضهم كان يشتد به الحماس أحياناً ويقوم بالثورة ، يعنى أن القلوب بقيت متوغرة إلى حد بعيد بحيث إذا ذكرت أحوال إخوانهم أهل الفضل والإيمان تثور بهم ثائرة الإيمان ، محبذين بذلك الشراء والموت ويرون الحياة بعد أولئك الغر الميامين مرة ، فإنهم بايعوا بعد هذا الحادث الإمام الحسن على ما بويع عليه الإمام الذى قبله ، وقاموا معه قومة واحدة وذلك عندما صار أمر الدولة إلى العباسيين الذين لم يكونوا خيراً من الأمويين :

قال المصدر المأخوذ عنه : وعلى أية حال فإن الهزائم التى منى بها الأباضية فى تلك المنطقة لم تضع حداً للوجود الأباضى فيها ، وتشير المصادر إلى أنهم بقوا أغلبية السكان حتى وقت متأخر ، والمعنى أن مصائب الهزائم المتوالية على الأباضية لم تثن من عنان الأباضية ولم تكبح من حماسهم ، لأنهم يرونها سروراً يتقدمون به إلى الله عز وجل ، فإن الناشئة الأباضية تنشأ على الوتيرة التى مضى عليها الآباء والأجداد ، فإن الحق هو أنشودة الأباضية والموت على الحق هو غاية الأمل عندهم ، وقوله وبقوا إلى وقت متأخر ولم يحققه ولقد حققه صاحب معالم الجزيرة وهو يمانى أيضاً ، يقول إلى تمام القرن السابع كما سوف تقف عليه إن شاء الله .

قال المسعودى إن الأباضية كانوا حتى عام ٣٣٢ هـ هجرية يكون أكثرية سكان حضرموت ،قال ولا فرق بينهم وبين من بعمان من الخوارج أى الأباضية . قلت وابن مسعود رجل يتشيع ولا يضر الأباضية، قوله من الخوارج ، لم يقل ابن مسعود للذين خرجوا على علىّ بن أبي طالب خوارج ، وقد قاتلوه وقتلوا المسلمين بين يديه فى وقعة الجمل وصفين ، ذلك لأن العميا ترى الرمح ولا يضر السحاب عوى الذئاب ،فإن الأباضية عاشوا فى اليمن وحضرموت مع وجود الشيعة والسنية فيها وحملوا سيرة الأباضية ، وكانوا معهم كما مر عليك ، لكن ما أراده الله لابد كائن ، ومالم يرده لم يكن، ولسان حال الأباضية يقول : تسيل على حد الظباة نفوسهم إلخ .

والأباضية كل حركاتهم لله ، وفى طاعة الله ، كما أعرب عن ذلك أبوحمزة رحمه الله ورضى عنه ، إذ قال : لم نقم أشراً ولابطراً ولا للدولة نروم أن نخوض فيها ولا لثأر نيل منا ، وإنما قمنا لله حين رأينا الأرض قد أظلمت ومعالم الجور قد ظهرت وكثر الادعاء فى الدين، وعمل بالهوى وعطلت الأحكام وقتل القائم بالقسط ، وعنف القائل بالحق ، سمعنا منادياً ينادى إلى الحق وإلى طريق مستقيم، فأجبنا داعى الله فأقبلنا من قبائل شتى ، أى حملتنا الغيرة لله ورأينا الجهاد واجباً علينا ، والله افترض على عباده الجهاد فى دينه .

هذا هو الذى يدعو الأباضية للخروج على أهل البغى ، ولم يقولوا بمبدأ غيرهم إن عدلوا فاشكروا وإن جاروا فاصبروا ، فهذا المبدأ طيب عند العجز عن القيام فى طاعة الله عز وعلا ، أما إذا كان إمكان

فالله يقول فى كتابه : (ولئن قتلتم فى سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون) ، ويقول : (أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم إن الله على كل شىء قدير) ، ولا يزال الأباضية مع قول عز وجل : (يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين) ، ويدخل معنى الآية الذين كفروا نفاقا وهو كفر النعمة ، فإنهم يردون المؤمنين إلى ما يهوون من ضلالهم ، ويقول الله فى كتابه العزيز لعباده المؤمنين : (كنتم خير أمة أخرجت للناس) ثم وصفهم لما كان قرر خيريتهم فى الناس : (تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر) ، فالذين لا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر لم يكونوا من الأمة التى أخرجت للناس وفى آخرها يقول : (وتؤمنون بالله) .

وعلى كل حال من لم يأمر بالمعروف ولم ينه عن المنكر ، لم يؤمن بالله ، فإن الإيمان يقتضى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وكذلك قوله جل شأنه : (يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون فى الخيرات وأولئك من الصالحين) ، بهذه الآيات وأمثالها يتعلق الأباضية ويتشوقون إلى الله فيقومون من قبائل شتى تحدوهم طاعة الله وتسوقهم عناية الله فيتجردون لمعارضة أهل المنكر لينهوهم عنه ويأمروهم بالمعروف ويرغموهم عليه ، فإذا قاموا قام أهل الباطل ضدهم فنشبت الحرب ، فهذا قاتل وهذا مقتول والله يعلم المقاصد ، وإن زخرفها الفساق وقزحها أهل النفاق ومزحها أهل الشقاق ، فالبارى سبحانه لا يحتاج أن يحققها له أحد ، فإنه يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ، سبحانه يعلم السر وأخفى .

وليس أهل الحق الذين يقاتلون الناس على الدنيا ، بل الذين يقاتلون على الدين ، لأن الدين رأس مال المسلم والحفاظ عليه حفاظ رأس المال ، ومن أضاع رأس ماله جاء يوم القيامة مفلسا لا موصل له إلى رضوان الله عز وجل .

ويقول الله عز وجل: (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودُّوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون) ، ينهانا الله عز وجل فى هذه الآية عن اتخاذ بطانة لا يألونا خبالا ودوا وأحبوا وأرادوا ما عنتنا ترشح البغضاء والعداوة من أفواههم سافرة لا ساتر لها ولا مغطى ، بل يصارحون بها وناهيكم بما تخفى قلوبهم فإنه أعظم ، لقد أخبر الله عباده المؤمنين بعداوة الفساق وأهل الدنيا الذين لا يبالون بما يفعلون مالديهم إلا ما يقضى على الحق وأهله بأى وجه كان ، وبذلك يشتعل الإيمان فى قلوب المؤمنين فيقومون إلى نصب الأئمة لإقامة منار الأمة ، وهداية من سبقت له من الله عناية فيركبون بذلك الأخطار ويصارعون كل عات جبار ، إن انتصروا عليه نشروا أعلام الحق ، وإن انتصر عليهم فقد أدوا واجبهم . هذه هى سبيل الأباضية فى كل الأجيال الماضية والله ولى التوفيق

ولا شك أن عقيدة الأباضية فى حضرموت استمرت لها السيادة ، قال صالح بن حامد العلوى فى تاريخ حضرموت فى الجزء الأول صحيفة ٢٦٩ : وقد بقيت العقيدة الأباضية سائدة فى بعض أنحاء حضرموت حتى أخذت تتلاشى تدريجياً بعد استيلاء الصليحى على بلاد حضرموت عام ٤٥٥ هـ ا هـ .

والحق أن العقيدة بقيت قائمة يؤيدها أئمة أجلاء ، ولعل آخرهم الإمام إبراهيم بن قيس بن سليمان رحمهم الله ، كما سوف تقف على ذلك أيها القارئ الكريم حتى تعلم أن أيام الحق هى أيام الأباضية ، ولما زالت أظلمت هذه الأصقاع وشاع فيها الابتداع وكثر فيها النزاع ، ولم يكن للشقاق انقطاع سنة الله التى سنها عز وجل فى عباده ، ولن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا ، وتلك الأيام نداولها بين الناس ، أولم يروا أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها يقول الإمام السالمى فى جوهره :

نقصان أرض الله موت العلما

وزينة الأرض هم لتعلما

وكانت لعلماء الأباضية فى حضرموت واليمن كبكبة باهرة وزخزحة قاهرة حتى تقلص ظل الحق من دنيا السلام والله المستعان .

الإمام أبو إسحاق رحمه الله

كان الإمام أبو إسحاق إبراهيم بن قيس بن سليمان الحضرمى الهمدانى من أهالى حضرموت من عائلة معروفة بالعلم والعمل ، مشهورة بالفضل ، لاسيما فى تلك الأيام العصيبة التى أدبرت فيها أيام الحق بتأخر الأباضية بسبب الغارات التى تتوالى على بلاد حضرموت لسحق الحق ومحق العدل ، وجعل البلاد عمياء ذليلة بانتقال الأمة الصالحة منها إلى الله عز وجل .

يقول المصدر اليمانى الذى مشينا معه للأخذ عنه يقول : والمعلومات التى لدينا عن أبى إسحاق تلقى ضوءاً ساطعاً على الحالة فى القرن الخامس الهجرى ، وتخرج بنا من ذلك الصمت البغيض المخيف والغموض الذى شمل القرنين الثالث والرابع . قال فقد ذكروا أن والده قيساً كان عالماً كبيراً وذا ثروة واسعة ومكانة مرموقة ، مسموع الكلمة مطاع الأمر والنهى ، وقد بذل مجهوداً عظيما فى تربية ابنه إبراهيم حتى صار أعلى من أبيه شأناً وأعظم جاهاً وأوسع اطلاعاً ، وأثبت جأشاً وأشد إقداماً .

قال وقد تصدى للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، بل ومحاربة المنكرات ومعالجة شئون الاجتماع فى أخريات أيام والده ، ولم يكد يمض فى غايته بعيداً حتى هجم القرامطة للمرة الثانية ، فقد كان هجومهم المرة الأولى ، كما ذكره علوى بن طاهر الحداد ، فى أواخر القرن الرابع فخربوا ودمروا كعادتهم فى غزواتهم ، وقطعوا النخيل وسلبوا الأموال وعاثوا فى البلاد فساداً. قال ولم يجد أبو إسحاق فى حضرموت من يناصره فى صد غارات القرامطة ، فالتجأ إلى الخليل بن شاذان الأباضى إمام عمان طالباً منه النجدة ، وقدم إليه قصيدة جاء فيها :

يا خـــير خل لم خرّبت أوطاننا
واستعبد السفهاءُ كل نبيـــــل
يا خير خل لم نطق دفع الأذى
عن أخذ مكنون وجـد نخيل
يا خير خل أصبحت أسواقنـــا
أسواق سحت واعتداء محول
يا خير خل قـــد غُلبْنا فانتصر
وانظر لنا بالرأى عزم أصيل

بهذه القصيدة التى جعلها لسانه رحمه الله معربة عنه حاملة إلى الإمام الخليل بن شاذان بن الصلت بن مالك الخروصى رحمه الله كل شكوى عن واقع الأمر من أولئك العتاة الأوغاد الذين فسدت ضمائرهم ، وحميت نفوسهم على عبـاد الله ، لقصد النهب وسفك الدم وتدمير الإسلام وقهر رجاله .

قصيدته الثانية تحمل إلى الإمام الثناء الحسن الجميل والشكر له بما أسداه رحمه الله يقول فيها حاكياً عن الواقع :

فجدت له بالعذر بسطاً وجاد لى
بما فيه نصر لا عـــدته المكارم
فها أنا ذا بالمال والبيض و القنـــا
على حضرموت بالسلامة قادم
فلا تخبرا عنى إذا سرت نحوها
وناديت فى الإخوان أين اللهامم

قال وعاد أبو إسحاق إلى حضرموت بعد أن أمده الخليل بن شاذان بالمال والسلاح ، قال وقد استطاع بهذه المعونة أن يجمع حوله جنوداً وأنصاراً فرق بهم أعداءه حتى لم تبق منه بقية سوى طوائف التجأت إلى القرى الواقعة بأطراف البلاد ، ثم وجه إلى الإمام الخليل رحمه الله وفداً يخبره عما كان له على أثر تلك المعونة التى خرج بها الإمام أبو إسحاق من عمان يهتز بها ناشطاً على حرب العدو حين وجد من الإمام الخليلى بغيته، ونال أمنيته ، ورأى أن وراءه ظهراً يستند عليه ، ومع الوفد قصيدة عصماء جعلها المحدث الكريم عنه ، وعلى كل حال إن لسان المرء ترجمان عقله ، وقد انتهت الحرب التى قام بها هذا البطل الأباضى الحضرمى يقول فيها :

سل الوفد عنى يا إمام ألم أكن
تسربلت يوم الروع ثوب العزائم
وهل كان همى غير ما كنت ذاكراً
وهل نمت عن طرف الجواد وصارمى
حرام حرام إن طعمت بمنزلى
إلى اليوم طعم النوم بين الكرائم
ولكننى لما نزلت بعقوتى
نشرت لوائى فى الكرام القماقم
وساروا بحمد الله حولى كأنهم
بدور ولكن فى الوغى كالضراغم
فما كان إلا جمعة بعد جمعة
وأدت إلى العشر أهل الحضارم

يصف هذا الإمام رحمه الله انتصاره على أعدائه بعد جمعة من ثورته التى ثارها عليهم ، وجاء من الإمام الخليل مزوداً بالعدة اللازمة ، ولما وصل حضرموت دوخ المعادين . وقضى على المتمردين، فنجح بتوفيق الله عز وجل ثم قال متحدثاً بنعمة الله :

سلى الخطبا لما دعوا لك جهرة

على رغم أهل الجور بعد التصادم

سل عرب البيداء هلا أذقتهم

عشية خانوا العهد سم الأراقم

يخبر هنا أن الخطباء فى منابر حضرموت نادوا باسم الإمام الخليل ابن شاذان ، وأعلنوا عن تأييد الإمام أبى إسحاق ؛ وأنهم مبتهجون بما لاقوا . قال رحمه الله : إنه قضى على الخونة من بادية حضرموت الذين كانوا عاهدوه فخانوا العهد ، وعندما رأوا السيوف حمراء تسيل الدماء على حدودها خضعوا للحق وأذعنوا للإمام أبى إسحاق ، فكان الأمر على خلاف ما يأملون .

قال رحمه الله متحدثاً عن الأحوال هناك سوى نفر كانوا عصاة فأصبحوا من الخوف فى رءوس القرى كالحمائم ، يعنى أن قلة من رجال العدو كانوا باقين على عصيانهم ففروا من وطئة الحق هاربين . قال :

ولم يبق لى إلا الصليحى قائما

وها هو أيضاً عزه غير قائم

وفى رواية سعده غير قائم ، والمعنى لم يبق من ينازعنى الأمر إلا الصليحى ، ولكن سعده لا يسعده وعزه لا يعزه وسلطانه لا يساعده ،

فإن الحق إذا قام انزهق الباطل أمامه وقاده إلى الذل ، والمراد بالصليحى أحد حكام اليمن فى القرن الخامس الهجرى ، وقد سبقت الإشارة إليه فى الفصل الخاص باليمن ، ومؤسس دولة الصليحيين هوأبو الحسن على بن محمد ابن على الصليحى الحاشدى الهمدانى ، كان له أب معروف فى اليمن سنى المذهب ، وكان قاضياً مطاعاً فى أهله وعشيرته .

وكان الداعى عامر بن عبد الملك الدواحى يلاطفه ويركب إليه لرئاسته وعلمه واستقامته ، وقد أعجب بذكاء ابنه على وهو دون البلوغ فقربه منه وأوصى له بكتبه بعد وفاته ، عكف أبو الحسن على بن أحمد الصليحى على الدرس حتى تضلع من المعارف وأصبح فقيهاً فى مذهب الإمامية ، وله نظر فى علم التأويل ، وصار يحج بالناس دليلاً على طريق السراة بالطائف خمس عشرة سنة ، وكان الناس يقولون سيملك اليمن بأسره ويكون له شأن فيكره ذلك وينكره .

وفى سنة ٤٢٩ ثار أبو الحسن هذا فى رأس مشار هو أعلى ذروة فى جبال اليمن ، وكان معه ستون رجلا قد حالفهم على الموت بمكة فى موسم ٤٢٨ ، وكان هؤلاء فى عز ومنعة وعدد فى قومهم وعشائرهم ، ولما أعلن الثورة فى ذلك الجبل المنيع أحاط به فيما يقال عشرون ألف ضارب بالسيف ، وحصروه وسفهوا رأيه وقالوا له : إما أن تنزل وإلا قتلناك جوعاً ، فأقنعهم بأنه لم يكن فى ثورته إلا مدافعاً عن حقوقهم وخائفاً أن يملكهم غيرهم ، فانصرفوا عنه .

وأنت تدرى أن هذا الرجل كان أبوه سنياً ثم صار هو إمامياً ، وأنه كان يتعاطى أشياء لا يقدر على إنجازها ، وكان مغتراً بنفسه مخدوعاً فى عقله ، ولكن لم يبين المصدر الذى نأخذ عنه من هؤلاء الذين حالفوه على الموت

ومن الذين أحاطوا به . قال ولم يمض عليه شهر حتى حصن هذا الجبل واستفحل أمره تدريجياً ، وكان يدعو للمستنصر الخليفة الفاطمى فى مصر سراً ، ويعمل الحيلة فى نفس الوقت لقتل المؤيد نجاح صاحب السلطة فى تهامة ، وقد استكان له أول أمره ، ثم دس إليه السم مع جارية جميلة أهداها إليه فقتله سنة ٤٥٢ .

وفى سنة ٤٥٣ كتب الصليحى إلى المستنصر يستأذنه فى إظهار الدعوة ، فأذن له فطاف أرجاء اليمن يفتح الحصون والتهائم ، ولم تخرج سنة ٤٥٥ حتى كان ملكه عم اليمن بأسرها . وفى هذا العام استقر أمره فى صنعاء وأخذ إليه أمراء اليمن الذين أزال ملكهم وأسكنهم معه ، ولعل ذلك لقصد القهر عليهم وهو الظاهر .

قال وولى غيرهم فى مناطق نفوذهم واختط عدة قصور بمدينة صنعاء ، وفى سنة ٤٥٦ دخل عدن ولحج واصطحب معه الأمراء الذين يخافهم ، ولما دخل عدن خطب على منبرها فى الجامع ، وفى سنة ٤٧٣ هجرية عزم الصليحى على الحج واصطحب معه الأمراء المشار إليهم ، ويقال إن عددهم خمسون أميراً وذلك خوفاً من أن يحدثوا شيئاً فى غيبته ، ومن بينهم صاحب عدن ولحج من بنى معن ، واستخلف على اليمن ابنه أحمد بن على وولى على تهامة أسعد بن شهاب أخاً لزوجته أسماء ، وخرج فى ألفى فارس وكان قد سمع بأن سعيد الأحول بن نجاح صاحب تهامة المقتول بالسم قد خرج هو وأخوه حياش فى جماعة من أصحابهما لقتاله ، فسير خمسة آلاف رجل للقائهم من الحبشة فاختلفوا فى الطريق فظفر الأحول بالصليحى فى ضيعة يقال لها الدهيم وبئر أم معبد ، فلم يبرح من مكة حتى قتل الصليحى وقتل معه أخوه عبد الله فى الثانى عشر من ذى القعدة .

وظفر الأحول بعد ذلك بجيش الصليحى الذى سيره لقتله فقتل منهم وأسر ورجع إلى زبيد ظافراً فى ١٦ من ذى القعده سنة ٤٧٣ هـ، وملك بلاد تهامة كلها إلى أن قتل سنة ٤٨١ هـ .

وفى هذه الحادثة قبض على أسماء بنت شهاب زوجة الصليحى وحبست فى زبيد إلى أن استنقذها ابنها المكرم أحمد بن على الصليحى زوج السيدة أروى بنت أحمد بن محمد الصليحى التى تولت اليمن بعد أن أصيب المكرم بالفالج .

وكان صاحب عدن ولحج من بنى معن فيمن نجا بعد قتل أثناء الطريق، فجاء إلى لحج وأعلن الاستقلال وترك طاعة الصليحيين ، وامتنع من أداء خراج عدن ولحج الذى جعله الصليحى مهراً للسيدة أروى بنت أحمد عندما زوجها من ابنه أحمد .

قال المصدر اليمانى المعروف : ولما امتنع من أداء الخراج بنومعن قصدهم المكرم أحمد إلى لحج وعدن وأخرجهم منها وولاها العباس ومسعود ابنى مكرم الجشمى اليامى إلى آخر ما أطال من تاريخ القوم ، ولأجل المعرفة بالصليحى ودولته ومنافساته لأهل الحق من رجال الأباضية أوردنا تاريخه للتعريف به وبأعماله التى قال بها فى حضرموت .

قال المصدر ولما توفى المكرم أحمد بن على الصليحى قام بدعوته ابن عمه سبأبن أحمد الصليحى ، وجعل قاعدة مملكته حصن الشيخ ، وقد عاصر الصليحيين أبو الفتح الديلمى فقتله فى نجد الحاج سنة ٤٤٠ ، وكذلك الأمير حمزة بن أبى هاشم ، ثم قتله الصليحيون فى الملوى من بلاد أرحب.

وهكذا كان الصليحيون فى هذا القرن الخامس الهجرى .

قال المصدر الذى نعتمد عليه فى نقل هذه القضايا : وقف أبو إسحاق حائلا دون تنفيذ مطامع الصليحيين فى احتلال حضرموت وفى ذلك يقول من نفس القصيدة المارة :

يخوفنى أن المعـز ملاذه
بمصر وماخوفى لأهل المظالم
إذا وفده ولى إلى مصر رايدا
مضى وفدنا قصداً لخير المعالم (١)
ليعلم أى الحزب أسبق نصرة
وأيهما أولى بفعل المكارم

وأراد بهذا المعز الخليفة المستنصر الفاطمى بمصر الذى كان الصليحى يحارب من أجله ويخطب باسمه ، قال واستمرت الحرب بين الصليحى وأبى إسحاق مدة طويلة اضطر أثناءها أن يطلب المدد مرة أخرى من الخليل بن شاذان كما تدل على ذلك قصيدته هذه التى يقول فيها :

من شاء يعلم ماكانت أوائلنا
فيـه فسيرتنا تكفيه برهانا
هذا الخليلى إمام المسلمين حكت
أنوار سيرته فى العدل نيرانا

---

(١) يريد بخير المعالم . عمان وعاصمتها نزوى أه.

يفتخر أبو إسحاق رحمه الله بالخليل بن شاذان رحمه الله ورضي عنه يقول فيه :

يا أيها العلم العدل الذى كملت
له الخصال مروات وإيمانا
إنى أحبك والرحمن يعلمه
حب احتساب إلى ذى الطول قربانا
إذ صرت مشتهراً بالفضل أنت ولى
قلب يحب بدين الله من دانا
حتى عبرت إليك البحر منتصراً
أيام عدت بما أوليت جذلانا

ثم طلب النصرة من الإمام رحمه الله ثانيا كما طلبها أولا فقال :

فانصر أخاك فإن الحرب قائمة
والحق يطلب من أهليه أركانا
واعلم بأنك قد أثرت مأثرة
فارفع لها شرفا فالأمر قد هانا
إن الذى عمرت صنعاء دولته
بالفسق أصبح من مولاى فزعانا
أضحت مخالفة أرض اليمان له
لما رأتك لها حصنا ومعوانا

يصف أبو إسحاق فساد الصليحى فى صنعاء العاصمة ، وأنه لما رأى النصر من الإمام لأبى إسحاق أصبح مرتاعاً خوفا أن تصبح قوات الإمام محيطة به أو تحل قريبا من داره فتحل عليه النقمة ، وأهل الباطل يرتاعون من أهل الحــق إذا رأوا ثورتهم ، فإن الباطل زهوق بنص الكتاب :

فارقدهم فهم يدعون ربهم
جهراً لتملكهم سراً وإعلانا

والمعنى هم يتمنون أن تكون أنت إمامهم وحاكمهم ، فأمده الخليل رحمه الله فرجع الصليحى خائب الأمل حين رأى قوات الإمام تزحف على اليمن ، ولاريب فإن حضرموت من أول أمرها أباضية ، فلذلك كان أبو إسحاق أباضيا هو وآباؤه وإخوانه حتى تدخل فى حضرموت الأجانب من بقية المذاهب من سنية وشيعية وزيدية .

والحجة للأباضية كون حضرموت أباضية فى العهد القريب من الخلافة الراشدة وما يقرب منها ، أما بعد ذلك فقد تلاشى الدين واضطرب حبل الإسلام ، وتبدلت الأحوال ووقع التحزب فى الدين ، وظهرت المذاهب المتعددة ، ونهج كل فريق منهجا تصديقاً لحديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذى يقول فيه : « ستفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة كلها هالكة إلا واحدة ناجية » ويقول أبو إسحاق رحمه الله :

أبا القاسم اسمع لاعدمتك قصتى
لتجعب من أمرى وأنت رشيد

طلبت بوادى حضرموت فلم أجد
بها أحـــــداً ينكى العدا ويكيد
فسرت عمانا قلت على أرى بها
شراة تسامى والمكان بعيد
فجادوا ببذل المـــال دون نفوسهم
وعـدت حميداً والإمـام حميد

يقول أبو إسحاق رحمه الله إنه طلب من أهل حضرموت المعين والمناصر فلم يجده ، ولعل القوم تخوفوا من مناصرة أبي إسحاق خوف العدو الجاثم فى البلاد ، فأمده الإمام بالمال دون الرجال ، لأن المال قد يكون لايظهر ، أمام الرجال فالحرج يكون بهم أكبر والعداوة تشتد، فلعل أبا إسحاق لاينتصر فيكون أمر العدو على أهالى حضرموت أشد ، ولكل وقت سياسة والسياسة هى الجند الفعال .

قال أبو إسحاق رحمه الله :

فلما رأى أهل الضـلال شـرارتى
تـزيـد حيـاة والضـلال يبيـد
بدالهم أن ينكثـــوا فتسللوا
لواذاً وغـــال المسلمين خمود

يقول أبو إسحاق : لما رأى أهل الضلال اتقاد شرارتى والتهاب جمرتى فروا خوفا من العدو ، وذلك أنه جاء بلا رجال ولا سلاح ، ولما رأوه جاء كذلك قالوا إن الرجل جاء بالحيبة زاد خوفهم واشتد روعهم ، وقاموا يتسللون لواذاً مستخفين منه ، لذلك قاموا يتسللون

هرباً أو أنهم حسدوه على ما جاء به ، فإن المال يقوى الرجال ويؤيد العمال ويوطد الأعمال وهاهو ذا يقول الآن :

سيعلم دغـــــاربن أحمد والفتى
سلالة مهـــــدى وكل مخالف

ولعل دغار هو لقب على بن أحمد ، فإنه هو الذى برز الآن فى الميدان ، وقام يزمجر فى حضرموت فلم يوجد لزمجرته راد إلا الإمام أبا إسحاق قال :

إذا نزل المستنصرون بجحفـــــل
يهزون بيضاً كبروق الخواطف

والمعنى سيعرف دغار ومن معه إذا نزل المستنصرون بإمام نزوى معهم العدة والمال ، ويقول البطل البارونى رحمه الله : إن أبا إسحاق أقام عاملا بحضرموت للخليل بن شاذان مدة حياته ، فلما نصب راشد بن سعيد إماماً بعمان بعد الخليل بقى عاملا على حاله ، وله مع الإمام راشد قصائد يعترف له فيها بالولاء منها قصيدته التى أرسلها إليه يعرض فيها للإمام راشد يريد النجدة فى حربه مع نهد وعقيل حيث يقول :

أباضية زهر كرام أفاضـــــل
مناقبهم فى كل سامى علا تبدو
وأنت لنامن بعــدهم صرت قيما
حمولا لثقل الخطب يورى بك الزند

وسار فيها إلى أن قال :

فإن عدلوا عن بغيهم وتراجعوا
إلى عسكر الإسلام والحق وارتدوا
فأهـــــلا وسهلا بالعشيرة إنهم
إليكم بإخلاص لرب السما أدوا
وما بين وادى حضرموت وبينكم
إذا سركم إتياننا نحوكم بعـد

يقول إذا حزّبكم أمر ودعتكم الحاجة إلى حضورنا إليكم فلا تعد بيننا وبينكم ثم قال :

متى يأتنـــا منكم صريخ نؤمكم
بعسكر جرار يضيق به النجد
كهولا وشباناً صباحاً مساعراً
وراداً إلى الهيجا إذا استعصب الورد
بكل ردينى أصـــــم ومرهف
كمثل شعاع الشمس تحملنا الجرد

وكانت للأباضية فى حضرموت مراكز معروفة ومنازل مألوفة فى شبام وميفعة وفى هين وذى أصبح ووادى حضرموت ، كل هذه البلاد كانت خاصة بالأباضية كما ذكرهم أبو إسحاق رحمه الله فى قصيدته العينية حيث يقول وهو يتحدث عن لسان حال التى تخاطبه :

فقلت وما يبكيك يا خود لا بكت
لك العين ما هبت رياح زعازع

فقالت بكيت الدين إذ رث حبله
وللعلما لما حوتها البـــــلاقع

فأين الأولى إن خوطبوا عن دقائق
من العلم أنبوا سائليهم وسارعوا

فقلت لها هم فى شبام ومنهـــــم
بميفعة قـــــوم حوتهم ميافع

وفى هينن منهـــــم أناس ومنهم
بذى أصبح حيث الرضى والصمادع

ومنهم بوادى حضرموت جماعة
وأرض عمان سيلهم ثم دافع

ومعنى البيت الأخير أن معظمهم بعمان فهم فيها كالسيل الدافع .

قال المصدر اليمانى : وواضح أنه يعنى بهؤلاء العلماء رجال العلم من الأباضية ، فقد كان يوجد بحضرموت عدد كبير من العلماء قبل ظهور أبى إسحاق وبعده ، قال وفى البضائع للسيد عبد الرحمن بن عبد الله أنه كان بحضرموت قبل أن يصل إليها من أجلة الفقهاء من لا يشق غبارهم ولا يخفى منارهم ولا تجهل آثارهم .

وقال ويقول البارونى : إن أبا إسحاق عمر زمناً طويلاً ورزق ذرية صالحة وتوفى فى حال حياته ولداه محمد وأبو الحسن بعد أن تنورا بأنوار العلوم ، وتهذبا بمحاسن الأخلاق والآداب ، وبلغا مبلغاً عظيما فيه فعظم

عليه فقدهما ورثاهما بقصائد بعضها مثبوت في ديوانه . قال والحديث عن أبي إسحاق هذا هو آخر العهد بالمعلوم لدينا من تاريخ الأباضية في حضرموت ، فلا نعلم عنهم أكثر من أن الأباضية بقيت على جانب من القوة والمنعة إلى عهد الفقيه المقدم المتوفى سنة ٦٥٣ هـ ، حيث أخذ ظلها يتقلص بفضل الحملات التي تثار ضدها حتى انمحت تماماً وحل محلها مذهب الأشاعرة السنيين في الأصول ، ومذهب الشافعي في الفروع .

والمعنى أن الحال الديني أصبح في اضطراب وأصبح أهل حضرموت في أديان لا في دين ، فهم على أصول الأشاعرة وفروع الشافعية وهذا دليل الاضطراب ومحط الخلاف ، فإنه صار لدين الله أديان متعددة ، فإن الحق واحد لا يتعدد ، فإن الفروع تتبع الأصول . فهم من ناحية أشعرية ومن ناحية أخرى شافعية ، والأمر لله عزوجل ، ولا يخفى أن مذهب الأشاعرة مذهب مرجئ وهو في غاية الانحطاط في عقيدته ، ولولا خوف التطويل لجئت بأصوله وفروعه لا سيما التناقض الذي لا يخفى على البصير .

قال غير أن المتتبع لتاريخ سلاطين آل راشد الذين ظهروا في الميدان السياسي منذ أول القرن السادس الهجري ، تجد أن خلافاً واضح الأثر بين بعضهم وبين كبار أنصار السنة من العلويين . فهل كان هؤلاء السلاطين ممن يذهبون مذهب الأباضية ؟ اسمع ما يقول الشرع : وكان السلطان في ذلك الزمان من آل قحطان قد أضمر السوء مراراً لعلوي بن محمد صاحب مرباط المتوفى سنة ٦١٣ هـ ، قال وكان يظهر له الصداقة جهاراً فرقاً من نوجه الناس وخوفاً من أن يأمرهم بالخروج عليه ، فأعمل فيه مكره وسقاه السم المرة بعد المرة فلم يعمل فيه شيئاً ولم يضره .

قال ونقل الشيخ محمد بن عبد الله باسودان أن بعض أئمة ذلك الزمان كلف العلويين بإثبات نسبهم بالطريقة القضائية ، وكان الحامل له على تكليفهم من عنده نزعة أباضية ، قال فسار الإمام المحدث على بن محمد بن جديد إلى البصرة وأثبت نسبهم عند قاضيها وأشهد على إثبات القاضى نحو مائة شاهد ممن يريد السفر إلى الحج ، ورقب بمكة حجاج حضرموت ، قال وقال صاحب البضائع إنه بذلك انتهى الهمس والتقطيب ، وانقطعت لسان كل خطيب قال وعلى بن محمد بن جديد هذا فى أيام آل راشد وتوفى بالحجاز سنة ٦٢٠ هـ .

قلت لم أعرف مايريد هذا الذى أثبت نسبه بالبصرة والمفهوم منه أنه أثبت نسبه أنه علوى وإذا كان كذلك فبالنسبة إلى الأباضية ، فالأباضية لايعتدون بالأنساب ولا يعولون عليها ، إنما يعولون على التقوى امتثالا لقوله عز وجل : (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) ، اللهم إلا إذا كان إثبات النسب المشار إليه لأجل حق قرابة النبي عليه الصلاة والسلام من الغنيمة الوارد حكمه فى قوله تعالى : (واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى) الآية والله أعلم .

وكان سالم بن بصرى من ألد أعداء الأباضية فى حضرموت وأنه يحارب بدعتهم ولم يبين عن هذه البدعة التى يحارب الأباضية من أجلها ابن بصرى ، وأنه كان ينال منها جهراً قال ويذكر صاحب البضائع أن العلامة ابن بصرى قتل يوم الجمعة ٢٣ رجب سنة ٦٠٤ هـ ، قال فمن هذا الذى امتحنه ؟ ولماذا ومن ذا الذى دبر الحيلة فى مقتله ؟ وما هى الظروف

التى أحاطت بهذا القتل والاغتيال ؟ قلت : لما كان مشهوراً بعدواة الأباضية فلابد أن يكون الأباضية اغتالوه فقتلوه ذلك قتل الباغى معهم اغتيالا جائز لاسيما إذا كان لايمكن قتله جهاراً ، فإن النبى عليه الصلاة والسلاة أمر بقتل رجال ونساء ممن اشتدت عداوتهم له ، وقد صح ذلك عند أهل العلم بالسير . قال المؤرخ سعيد عوض باوزير اليمانى : ولنترك الأباضية تجود بأنفاسها فى نهاية القرن السابع الهجرى ، ومعنى ذلك أن آخر وجود الأباضية بذلك الطرف تمام القرن السابع ، ثم تقلص ظلها وانحل أمرها ولكل شىء نهاية . وبذلك دخلت المذاهب الأخرى بحضرموت واليمن ، وهذا خاص بالزعامة فى هذة الأمكنة ، فإن نظر المؤرخين إلى الزعماء لا إلى أفراد الأمة فإنه من الممكن أن تكون بقية بحضرموت من الأباضية إلى عهد ممتد ، إلا أن النظر إلى الأعيان لا إلى الأفراد وسينتهى أمر الدنيا كلها، والله المستعان .

اه يوم ٢٢ صفر سنة ١٤٠٠ هجرية .

بقلم العبد لله محمد بن حسن بن محسن الرمضانى بيده

تاريخ يوم ٧ جمادى الأولى سنة ١٤٠٠ ه الموافق ٢٢ إبريل عام ١٩٨٠ م .



فهرس الكتاب

الموضـــوع	رقم الصفحة



رقم الإيداع ٤٨٤٦ لسنة ١٩٨٠

مطابع سجل العرب
٩ شارع عماد الدين / القاهرة ت ٩٣٢٧٠٦